فاضل العزاوي

كوميديا الأشباح

مكتبة بغداد

رواية

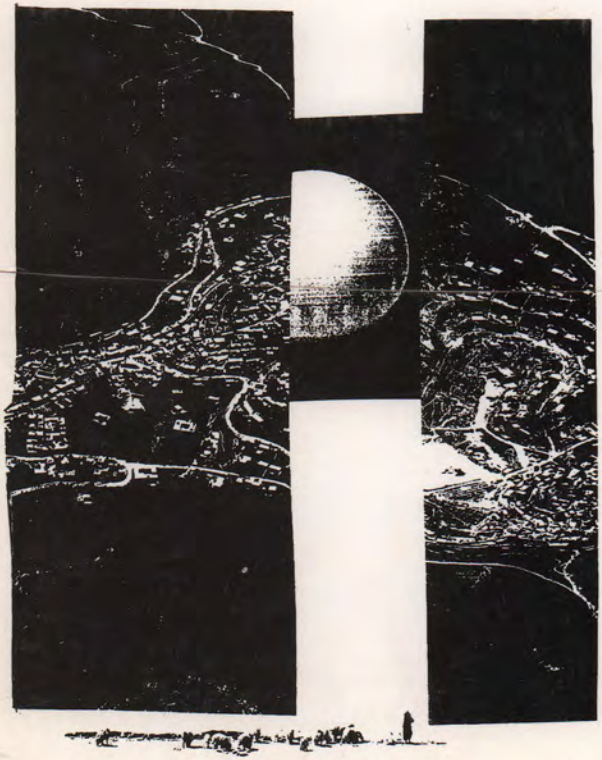

منشورات الجمل

فاضل العزاوي

كوميديا الأشباح

رواية

منشورات الجمل ١٩٩٦

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فاضل العزاوي ولد في كركوك ١٩٤٠، درس الأدب الانكليزي في جامعة بغداد ومن ثم الصحافة في جامعة لايبزغ (ألمانيا)، حيث قدم اطروحة دكتوراه عن مشكلات تطور الثقافة العربية. شاعر وناثر، اشترك في اصدار مجلة "الشعر ٦٩" العراقية. غادر العراق في بداية ١٩٧٧، حيث يعيش في برلين الآن ككاتب متفرغ. من أعماله المنشورة: مخلوقات فاضل العزاوي الجميلة (رواية، ١٩٦٩)، القلعة الخامسة (رواية، ١٩٧٢)، سلاما أيتها الموجة، سلاماً أيها البحر (شعر، ١٩٧٤) الشجرة الشرقية (شعر ١٩٧٦)، الأسفار (شعر، ١٩٧٦)، الديناصور الأخير (كتابة ثانية للمخلوقات، ١٩٨٠)، الهبوط الى الأبدية بحبل (قصص، ١٩٨٩)، مدينة من رماد (روا ية، ١٩٨٩)، رجل يرمي أحجاراً في بئر (شعر، ١٩٩٠) آخر الملائكة (رواية، ١٩٩٢)، صاعداً حتى الينبوع (أعمال شعرية، ١٩٩٣)، في نهاية كل الرحلات (شعر، ١٩٩٤)، بعيداً، داخل الغابة (نقد، ١٩٩٤)، صاحب الفخامة الديناصور (رواية مترجمة، ١٩٩٥).

فاضل العزاوي: كوميديا الأشباح، رواية
لوحة الغلاف للفنان حيدر الجاسم
© منشورات الجمل ١٩٩٦، كولونيا – ألمانيا

© Al-Kamel Verlag 1996
Postfach 600501
50685 Köln - Germany
Tel: 0221 / 736982
Fax: 0221 / 7326763

تطلب **منشورات الجمل** من الناشر مباشرة أو من:
المركز الثقافي العربي: لبنان – بيروت ص. ب. (٥١٥٨ / ١١٣)
المركز الثقافي العربي: المغرب – الدار البيضاء ص. ب. (٤٠٠٦)

واقفا في عز ظهيرة حياتي

ألفيت نفسي تائها في واد

وبينما الذكرى ترف فوق روحي، والقشعريرة تخض بدني

فكرت فيما رأيته،

كانت حياتي قد أضاعت مجراها القديم

وطمأنينة نفسي غارت في الليل والعدم،

ومع ذلك فإن روحي أبت إلا أن تغني لكم في نشيدي هذا

كيف اندفعت من الجنون المعتم إلى النور.

"من قادك إلى الظلام؟"

هكذا سوف تسألونني والقشعريرة في أبدانكم أنتم أنفسكم.

" نعاس عميق مس برقة جبيني،

كيف مت، لا أعرف أن أقول ذلك. "*

---

* إفتتاحية فصل "الجحيم" في "الكوميديا الإلهية" لدانتي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دخل النعاس الى جسدي فنسيت نفسي، نعاس مخدر يلتهم دماغي مثل حشرة تحفر داخل الرأس، محركة مجساتها. أغمض عيني فأراها تزحف في ضوء مصباح منير يتدلى من غصن ميت، ملطخ بدم يدلق من نبع. حشرة فسفورية تسبح داخل عروقي وتقضمني شيئا شيئا. أراها وقد شقت طريقها تنحدرالى قلبي وتتحول الى فراشة ملونة تحلق داخل غابة معتمة، يغمرها الضباب. يائسا أقول لنفسي: "إنني أموت"، غير واثق من الأمر، فما دمت أعرف ذلك لا يمكن ان أكون ميتا، فالموتى لا يعرفون شيئا. انهم ينامون حتى النهاية، تاركين الآخرين يفكرون فيهم. وأبتهج سرا مثل رجل عثر فجأة على سر حياته: "انني لا أزال حيا! هذا حق، هذا حق، لا ريب فيه". كل ما في الأمر هو انني أفكر قبل النوم، مثلما أفكردائما في وقائع حياتي. ثمة أشرطة كثيرة تعرض أمامي. أشرطة أحفظها عن ظهر قلب وأشرطة أخرى أراها لأول مرة، قائلا لنفسي: "ها أنت ذا ترى كل شيء، ماذا تريد أكثر من ذلك؟" اللعنة، انني ما زلت أمثل دوري القديم، كما لو انني الممثل الوحيد فوق هذه المنصة المهجورة التي غادرها الجميع. يخيل الي ان الأمر أكثر خطورة هذه المرة. أسمع الطبيب يقول لأحد ما في الغرفة: "لقد انتهى الرجل، انه يحتضر، سوف يقضي نحبه بعد ساعة او ساعتين على الأكثر!" أريد أن أصرخ في وجهه: "أنظر انني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حي وسوف أعيش رغم أنفك" ، ولكن فمي يظل مغلقا كما لو انه ليس فمي. ذلك مضحك حقا. لم أكن قد فكرت قبل الآن في ان يخونني فمي، مثلما لم أفكر في هذا الفاصل القصير بين الحياة والموت مثل وقفة في أغنية. وشعرت برهبة ان أكون شاهدا على موتي. عندما كنت صغيرا كان الكبار يروون قصصا مرعبة حقا عن الموتى. كان الميت يذهب مع المشيعين، بدون ان يعرف انهم يشيعونه هو بالذات. ثم اذ يريد العودة مع الآخرين الى البيت بعد دفنه يرفع رأسه فيصطدم بصخرة القبر ويكتشف الحقيقة المرة. ومع ذلك يظل يصرخ ويعول طويلا طالبا إنقاذه، بدون جدوى، فالصراخ الذي يطلقه الموتى لايسمعه الأحياء. قصة محزنة حقا، قصة سوف يعيشها الجميع ذات يوم. فكرت انني لا أزال حيا، ولكن ما قاله الطبيب قبل قليل جعلني أشك في ذلك. ربما كان الموتى يعجزون عن الكلام وحده، ربما يظلون يفكرون حتى النهاية كما أفعل الآن. آه، لا ينبغي ان أكون سخيفا في تفكيري الى الحد الذي أفقد فيه عقلي. أعرف انني ما زلت حيا حتى اذا كان جسدي يفلت من يدي، مثل مخمور تنملت عظامه. من مكاني فوق السرير أرى النافذة المفتوحة، الأشجار المغنية في الريح الخفيفة والغيوم الهاربة في السماء البعيدة. عيناي تنغلقان وتنفتحان ببطء. انني أنام، انني أستيقظ، أنام وأستيقظ. ربما لم تعد لي حقا سوى ساعة او ساعتين، حيث ينتظرني الموت الذي أعلنه طبيب مصح الأمراض العقلية الذي أرقد فيه. ان أفكاري تفلت مني، كما لو انها

ليست أفكاري. أفكاري ليست لي. انني أنقذف داخل الكون كله، عائدا الى البداية الاولى، أنقذف وأشم رائحة الحرائق في سديم العدم.

إنني أموت، إنني أمووووووووووووووت. ثمة ما ينفصل عني، أشعر برجلي تطولان وتمتدان بعيدا. ألوف من الكيلومترات تفصل ما بين رأسي ورجلي. لم أعد أشعر بهما. يداي تتحولان الى غصنين مزهرين بأظافر من معدن. انني أتأرجح في العاصفة القادمة من الشرق. ثمة نساء يخرجن من غرفة في فندق ويسرن في ممر طويل، ملقيات نظرات آسية على جسدي الذابل، حيث أسطوانة تدور في غرامافون قديم. أسمع الأغنية وأبتهج. نساء أحببتهن في حياتي، نساء سوف يحزن من أجلي، كما تقتضي العادة، نساء وقورات يرتدين ملابس الحداد. الأغنية تنتهي أيضا مثل هذه الحياة التي تفلت مني وأشعر بأسى ان أفقد كل شيء دفعة واحدة.

في شارع مشجر ما، شارع رأيته دائما في أحلامي، ألتقي ملاكا هبط لتوه من السماء، ملاكا صغيرا بجناحين أبيضين ناصعين. يتقدم مني ويقدم نفسه:

ــ أنا ملاكك الحارس، جئت لأنقلك الى الحديقة الكبرى.

أقول بلامبالاة:

ــ حسنا، أين شقيقك الآخر؟ هناك ملاكان لكل منا، أليس كذلك؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يبتسم الملاك الصغير:

ــ سوف تلتقيه في الطريق. انه يظهر فقط، حيث لا ينتظره المرء.

قلت وقد دب الذعر في قلبي:

ــ ماذا يوجد في الحديقة الكبرى؟ لا أعتقد اننا مدعوان الى مهرجان، يعقد في الآخرة!

صمت الملاك الصغير لحظة، متجاهلا سؤالي، ثم التفت الي وقال برقة:

ــ ينبغي ان نستقل سيارة أجرة، فالطريق طويلة الى هناك.

كان الوقت مساء ولم تكن ثمة سيارات كثيرة في ذلك الشارع المشجر الذي بدا لي خاليا بطريقة مشبوهة، مما جعلنا نسير طويلا قبل ان نصل الى شارع السعدون، حيث أوقف ملاكي الحارس سيارة فورد عتيقة، يقودها شاب انطلق بها حالما صعدنا فيها. ثم أدار رأسه وسأل:

ــ الى أين؟

أجاب ملاكي الحارس، وهو ينظر من النافذة:

ــ الى حديقة الآخرة.

ضغط السائق على كابح سيارته فجأة وأعلن مرعوبا:

ــ لا أعرف أين توجد هذه الحديقة. انني لا أذهب الى مثل هذه الأماكن.

غادرنا السيارة وصعدنا في سيارة أخرى، ظل سائقها يطوف بنا من شارع الى آخر، بدون العثور على الحديقة التي كنا نبحث عنها حتى

انتابه اليأس في النهاية، معلنا انه لا يعتقد بوجود مثل هذه الحديقة في بغداد. رمى بنا على قارعة الطريق وانطلق.

نظر ملاكي الحارس في ساعته وقال لي معتذرا:

ـــ اللعنة، ينبغي ان أنصرف أنا الآخر. هناك عمل كثير ينتظرني.

قلت ساخرا:

ـــ كنت أعتقد أنك موكل بي وحدي.

ضحك ملاكي قائلا:

ـــ لم نعد قادرين على تلبية مطالب كل هذه المليارات المتزايدة من البشر. ثمة نقص واضح في عدد ملائكة الرحمة الآن.

واذ رأى اضطرابي أضاف مطمئنا:

ـــ ولكن لا داعي للقلق، سوف تحصل على دليلك في النهاية بالتأكيد.

ثم رفرف بجناحيه وغاب في ظلمة المساء، تاركا اياي للوحدة.

ظللت أسير من شارع الى آخر. شوارع معتمة كثيرة، لا أحد يسلكها. لابد انها شوارع موتى، رحلوا تاركين كل شيء وراءهم. شوارع أشباح تظهر ثم تختفي كما لو أنها تخجل من الحضور البشري. هذه هي وهاد جبل قاف* البعيدة. أسير على غير هدى في

---

* في الأساطير العربية تقع مملكة جبل قاف التي تسكنها الأشباح في نهاية العالم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليل لم يكن ليلي. أسمع الريح تعول بين غصون الأشجار وأشم رائحة دم مسفوح فوق العشب. ها أنذا تائه هنا، أبحث عن حديقة سوف ينتظرني فيها ملاك، يقدم لي تعليمات سيده.

ـــ قف!

أسمع صيحة عبر الأشجار. أقف مرتجفا بين أشباح تحيط بي.

ـــ الى أين في هذا الليل البهيم؟

أقول مضطربا:

ـــ انني أبحث عن حديقة ينتظرني فيها ملاك.

أراهم يشهرون بنادقهم في وجهي:

ـــ لا ملائكة هنا، لا بد انك تخرف. الا تعرف ان السير ممنوع ليلا في هذه الطرقات؟

ـــ أقسم انني لا أعرف ذلك.

يدفعونني بفوهات بنادقهم ويقودونني الى سجن كنت أعرف كل حجارة في جدرانه. أقول مع نفسي "شكرا لله! السجن يثبت لي انني ما زلت حيا وان كل شيء على ما يرام".

انها الحياة تبدأ من جديد. سوف أعيش الى الأبد.

في زمن قديم جدا كان الوقت شتاء عندما قادتني رجلاي ثانية إلى مدينة بغداد، تلك المدينة التي كانت تمتد في كل الجهات بشوارعها وأسواقها وأزقتها الضيقة مثل وحش خرافي لا شكل له، وحش يبتلع

كل ما ترميه إليه فيضيع في أحشائه الملتوية. كلما غبت عن هذه المدينة عدت إليها بتوق لا يفتر أبدا، كما لو أن قوة خفية تجذبني في كل مرة إليها. كنت عائدا من السجن مثل كل المرات السابقة. فأنا لا أغيب عن بغداد إلا عندما يضع الجنود الأغلال في يدي و يأخذونني معهم. ها هو المأمور يتقدم نحوي بكامل قيافته العسكرية، هازا بيده اليمنى عصاه ذات الرأس المكور المذهب ويقول لي ضاحكا: "هيا احمل أمتعتك واخرج يا آدم، فقد انتهت ضيافتنا لك!" أصبت ببعض الدهشة والحيرة، فقد بدا لي السجن أفضل مكان يمكن أن يقيم فيه المرء مجانا. وهرع رفاق زنزانتي يهنؤنني على الحظ الذي أوتيته. كنت مأخوذا بما يحدث أمامي حتى أنني ظللت صامتا، لا أعرف ما أقول. فقد عز علي أن أفقد الزاوية التي كنت قد اشتريتها قبل أعوام من سجين آخر بنصف دينار. زاوية تتكيء عليها فوق فراشك المرمي فوق الأرض فترى النار تتقد في قلبك والحياة تزيح ستارتها المسدلة أمامك مثل مسرحية تنتظر ممثليها الجالسين خلف الكواليس. أصدقاء يتبعونك حيثما سرت وأعداء توكل إليهم أدوارهم. هناك تنفتح أمامك شوارع تذرعها وحيدا في آخر الليل، خارجا من حانة تضج بصخب السكارى وترى أشباحا من لحم ودم، مقبلة إليك فتقودها إلى ميدان مهجور وتجعلها تهرول من طرف إلى آخر. كان العالم كله قد انتهى أمامي، ولم أكن آسفا عليه، منذ اللحظة التي فتحت فيها عيني فرأيت جموعا، حشودا ومواكب تقبل من كل مكان وتحيط بي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مبتسمة ومبتهجة. كنت واحدا منهم في قصة مختلقة، أرويها لنفسي، قصة أعيد روايتها من بدايتها أو نهايتها، المرة تلو الأخرى، عارفا أن الحياة لعبة نسيان وأن كل ما نفعله أو ما سنفعله هو في آخر الأمر ليس سوى مقطع متروك من أغنية جارحة، تطلق في عتمة الزمن، أغنية تظل خرساء حتى النهاية.

في أي شهر كان ذلك؟ ماذا تهمني الشهور؟ شهور كثيرة انقضت من عمري، لم أسأل عنها، فلماذا أريد الآن أن أسترجع ذلك الشهر بالذات؟ لم أكن سعيدا عندما حملت حقيبتي الصغيرة بيدي وعبرت شرطيين ومخبرين ظلوا يحدقون في صامتين واتجهت الى البوابة الواسعة المفتوحة، خارجا إلى الشارع. كان ثمة شيء ما قد مات في داخلي، شيء لا يمكن أن يستعاد ثانية. وضعت يدي على قلبي ووقفت ألتقط أنفاسي مثل عداء بلغ نهاية الشوط. لم أكن أعرف إلى أين يمكن أن أذهب. دائما لا أعرف إلى أين يمكن أن أذهب. كلما غادرت السجن وجدت انني لم أعد أعرف أحدا في المدينة. في كل مرة بداية جديدة. في كل مرة عودة إلى الصفر وذكرياته المريرة. الأصدقاء يموتون أو يرحلون أو يغيبون بينما أظل أنا. لم يكن ذلك عادلا، قلت لنفسي، ثم انتبهت إلى الشمس في عيني. كنت أحب الشموس المريضة في الشتاء، اذ ينسل الخدر إلى جسدي فأشعر أنني سعيد رغم كل شيء. هل كنت عائدا من سجن أم مصح؟ من منفى

أم معسكر اعتقال؟ ماذا يهم ذلك الآن؟ كانت رجلاي تطبطبان فوق الاسفلت مثل طفل تعلم المشي لتوه. إنهما تتحركان، ترتفع الواحدة منهما قليلا، مندفعة الى الأمام ثم تتبعها الأخرى. رجلان متآخيتان، ما تكاد تأمرهما بالسير حتى تسيرا. إنها الحياة يا بني، قلت لنفسي، وأنا أحدق في الشارع المختنق بالناس والسيارات. كان يفترض أن أموت قبل آلاف السنين، ربما قبل مليون سنة. كلهم ماتوا ما عداي. ربما كنت أخرف. هذا يحدث لي دائما. ذات مرة في المصح قال لي الطبيب وهو يهودي يدعى سيغموند فرويد: "لا يمكن أن تكون آدم يا آدم. لقد مات آدم، ليرحمه الله، وهو يصطاد الأيل في البرية." تظاهرت بالاقتناع، ولكنني لم أقل له كل شيء. فإذا لم أكن آدم فمن أين تجيء هذه الذكريات التي تملأ رأسي؟ قال لي الطبيب: "دعك من قراءة الكتب بعد الآن، إذ كلما قرأت كتابا، اعتقدت أنك البطل." ها..ها..ها.. يا له من طبيب غبي! إنه لا يعرف أنهم كانوا يقفزون، الواحد بعد الآخر، كل ليلة من ذكرياتي المنسية في الزمن ويأخذونني معهم إلى ولائم يقيمونها في الأبدية. الرجل يخرف. إنه لا يعرف شيئا. أكيد أنه كان طبيبا فاشلا. لا يعرف أنني ما أكاد أغمض عيني حتى أرى مواكب البشرية كلها تعبر زقاق ذاكرتي مثل شريط سينمائي. في البدء، قبل الزمان كنت مع حواء في الجنة. أتنزه عصرا في شوارعها المشجرة، محيطا خصرها بذراعي بينما تضع هي رأسها على كتفي. كانت أياما جميلة حقا حتى جاءت تلك الحية اللعينة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجعلتنا نأكل من تفاحة فاسدة ما زال طعمها عالقا بفمي، آه، أريد أن أنسى كل ذلك الآن، أريد أن أنسى حتى نفسي.

صامتا أسير باتجاه ساحة الطيران، آملا في الوصول إلى مقهاي القديم الذي يقع قبالة الكنيسة الأرمنية التي كنت أعرف شماسها الأعرج. فكرت أن أذهب اليه وأستدين منه ربع دينار، ثم تذكرت أنه كان قد رحل إلى بيروت. أقام فيها عاما قبل أن يهاجر إلى أميركا. أعتقد أنه يقيم الآن في سان فرانسيسكو. فكرت أن أذهب اليه وأبحث عنه سوى أنني كنت متعبا. فقد يتطلب الأمر ساعات من المشي والسؤال عنه في حانات مليئة برجال، يرتدون الفساتين النسائية ويوردون خدودهم بالبودرة الحمراء. كنت قد بلغت مكتبة شكسبير الواقعة في الحي اللاتيني في باريس، قريبا من نهر السين، حيث وجدت شكسبير جالسا على كرسي عند المدخل، منهمكا في تأليف مسرحية غرامية عن روميو وجوليت. دخلت مترددا بعض الشيء مما أثار انتباهه فرفع رأسه وألقى علي نظرات مريبة، تجنبتها، خشية إثارة شكوكه، فربما اعتبرني واحدا من سارقي الكتب الكثيرين المنتشرين في المدينة. لكنه بالعكس مما خمنت ابتسم في وجهي وبادرني قائلا: "هل تبحث عن كتاب معين؟" قلت متعمدا الصراحة: "إنني مفلس تماما. فقد خرجت لتوي من السجن. كل ما أريده هو أن أملي نظري بالكتب التي افتقدتها زمنا طويلا." ضحك شكسبير الذي كان يرتدي بذلة

مضحكة من العصر الفيكتوري قائلا: "خذ أي كتاب تريده! يمكنك أن تدفع ثمنه عندما تستقيم أمورك." التقطت كتابين من الرف وخرجت مرة أخرى الى الشارع.

والآن إلى أين؟ أقول لنفسي مستديرا يسارا، عائدا من نفس الطريق التي كنت قد سلكتها من قبل، متفرجا على فتيات آشوريات، يقفن في شرفات شقق تطل على الشارع. أعتقد أن احداهن ابتسمت لي. ابتسمت أنا الآخر. ما هذا الذي تفعله يا آدم؟ ما هذا الذي تفعله أيها العجوز الأبدي؟ كنت لا أزال قادرا على الحب، رغم أنني أحمل في داخلي جثة قديمة، داخل تابوتها. إنها على أي حال جثة خاصة بي لا تهم أحدا. عندما غادرت السجن سألني كاتب الشرطة عن عمري. قلت له: «أعتقد أن عمري مليون سنة.» نظر الرجل إلي وابتسم وسجل في دفتره، العمر: ٢٥ سنة. ولكنني كنت أعرف أن هناك أصفارا ناقصة كثيرة. ما جدوى الأصفار؟ فأنا هو أنا بأصفار أو بدونها. كان يضحكني أن أكون أبا للجميع، أبا لكل هؤلاء الحمقى. إنني في الحقيقة لست سوى كائن يدب فوق الأرض. إن أحدا ما أرادني أن أكون شاهدا في زمن بلا شهود. في البدء أردت أن أفعل شيئا من أجل العالم، ثم كففت عن طيشي، بعد أن أدركت انني لست سوى ضحية أخرى. كان الجميع قد نسوني مع الزمن. وفي النهاية اعتقدت أنني قد نسيت أنا الآخر نفسي. ومع ذلك ظللت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أستلقي على قفاي من الضحك كلما التقيت أحدا يمثل دورا. لقد أثارني دائما سانشو بانسا الذي كنت ألتقيه أحيانا في طريق الطواحين الهوائية القديم أثناء نزهاتي اليومية أكثر من ذلك الأحمق النحيف دون كيخوته الذي مات وعيناه على مزبلة المجد. يا الهي، لكم نصحت كلكامش أن يعقل، بيد أنه ظل يشرب العرق ويبكي، خائفا من أن يموت ذات يوم. وماذا لو لم تمت يا كلكامش؟ هل تعتقد أن العالم سوف يتغير؟ كلا بالتأكيد. كل ما في الأمر هو أنه سوف يمتلئ بالشيوخ ويصبح دارا للعجزة. آه دعك من هذه الأفكار الشريرة يا آدم! لقد أصبحت تهذي أنت أيضا مثل ذلك المجنون العجوز الذي شدوا يده إلى يدك في القطار الصاعد من عاموراء إلى سدوم، حيث ظل يصرخ طوال الطريق، خائفا من السقوط في البئر حتى رأيت البئر أنت أيضا. فلو سقط الرجل في البئر لجذبك معه الى القاع. سجين سياسي وعجوز مجنون يهويان معا داخل بئر قديمة، مهجورة. لا لن يسمع أحد عويلكما، فالشرطيان الجالسان ازاءكما نائمان، وفي أيديهما بندقيتاهما. كان المجنون يعول كلما أبطأ القطار أو أسرع. أما أنت فكنت تستعيد ماضيك، مفكرا في الفخ الذي ينتظرك دائما.

بيوت مهدمة وبراميل قمامة في الزوايا. علب كارتون وأوراق أشجار، تجرفها الريح. ناس يسيرون في الشارع. يأتون ويذهبون. يذهبون ويأتي آخرون بدلا عنهم، ثم يذهبون هم أيضا. سيارات، طوابير سيارات، وأرصفة. حمالون يندفعون إلى الأمام وفوق ظهورهم

أكياس طحين أو صناديق شاي. إنهم ينظرون إلى الأسفل دائما ويزعقون. رجال ونساء يسيرون في اتجاهات متعاكسة. ربما كانوا ذاهبين إلى بيوتهم. ساعة خروج الموظفين من مكاتبهم هي الأسوأ دائما. إنهم يشبهون الغربان. يتدفقون دفعة واحدة ويعيثون في الأرض فسادا. ما من جديد في هذه المدينة. كل شيء مكرر وفاتر. ولكن لا بد منه. عيادة الدكتور اسماعيل طه ولوحة معلقة على عمود: خريج الجامعات الألمانية. في الطرف الآخر من الشارع تقع مدرسة الشرطة الخيالة. ولكنني لم أر قط حصانا في الساحة الخلفية. كانت هناك بضعة كلاب بوليسية، اشترتها مديرية الشرطة العامة من سكوتلانديارد، كل كلب بألف جنيه استرليني، ثم تبين أنها لا تشم سوى الشرطة، تاركة اللصوص يتسكعون على مقربة منها. كانت كلابا مسنة مصابة بالوهن والخرف. ومع ذلك ظل الشرطيون يقودونها كل يوم إلى ساحة التدريب حتى ماتت جميعها، فدفنت في مقبرة تملكها الدولة وراء قناة الجيش.

أقف مرة أخرى أمام السجن الذي كنت فيه. كدت أدخل ثانية وأقول للمفوض الذي أطلق سراحي "لا أعرف إلى أين أذهب. هل يمكن أن أعود إلى بيتي ثانية؟" ولكنني خشيت أن يرسلني الى السرداب الذي يعذب فيه ضحاياه. فقد يعتقد أنني أسخر منه أو أنني أحتقر سجنه. ذلك ممكن، ممكن تماما. في الأعوام التي أمضيتها هناك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأيت سجناء يبكون قبل إطلاق سراحهم، صارخين: "إلى أين نذهب؟ ماذا يمكن أن نفعل في عالم ممتلئ بالغرباء؟ أين ننام؟ وماذا نأكل؟" كنت أعرف خوفهم، ذاك الذي عشته المرة تلو الأخرى. أن تعود إلى مدينة لا تعرف فيها أحدا، بينما يقبع أصدقاؤك في السجون. كانت ثمة خيانة في الأمر حتى إذا كانت خيانة لا ناقة لك فيها ولا جمل. في الحقيقة لم تكن لي ناقة ولا جمل في العالم كله. كنت أرى نفسي كائنا منقرضا، شبيها بتلك الديناصورات التي يجدها المرء في أفلام والت ديزني. كنت أنا الآخر ديناصورا يخرج إلى الناس بين الحين والآخر فيألفونه مع الزمن. لم تكن لي حراشف مثله. لا بد أن أحدا ما قام بقصها. أذكر أنهم كانوا يأتون إلي في الليالي، مرتين أو ثلاث مرات في العام ويأخذونني معهم إلى كوكب بعيد ليجروا لي عمليات تجميل، مرممين وجهي ومستبدلين أعضائي التالفة بأعضاء أخرى ثم يعيدونني في اليوم ذاته إلى الأرض ويرمون بي بين الناس ثانية. في كل مرة كانوا يسألونني عما إذا كنت أعرف رجلا يدعى غاليليو غاليلي. كان من الواضح أنه قد نجح في الافلات من أيديهم واختبأ في مكان ما من الكرة الأرضية. أما أنا فكنت أقع في الفخ دائما. مرة واحدة فقط سألوني عما إذا كنت أعرف ما كان أرخميدس قد عثر عليه، فقلت ساخرا: "أعتقد أنه قد عثر على محفظة نقوده الضائعة." ثم حدثتهم عن يوليوس قيصر الذي قتل غيلة وراح ينظر في عيني قاتله، حاملا الخنجر في يده، قبل أن يهمس في أذنه "حتى أنت يا بروتوس!"

لا بد أنني كنت في نظرهم مجرد فأر أو أرنب في مختبر تجارب. كانوا صامتين دائما، يغطون وجوههم بأقنعة شبيهة بتلك التي يرتديها الجراحون عادة في غرف العمليات. في المرة الأخيرة أخذوني معهم إلى ما بدا لي أنه مركز مجرة في الطرف الآخر من الكون. هناك أجلسوني على كرسي من الألمنيوم في قاعة طويلة جلس في نهايتها رجل يشبه آينشتاين، علقت فوق رأسه على الجدار لوحة ضوئية، قال لي بلهجة محقق يستجوب متهما:

– لقد استدعيناك يا آدم لنوجه إليك بعض الأسئلة حول البشرية.

أغاظني سؤاله الذي بدا لي وقحا. ماذا يعنيني مصير البشرية؟ ربما أكون قد أخطأت عندما أكلت من تلك التفاحة الفاسدة في الجنة. ولكن الأمر لا يتطلب كل هذه التحقيقات القاسية، كل هذه الدماء التي سالت فوق الأرض حتى الآن. لقد كتب علي أن أكون شاهدا على أول جريمة ارتكبت هنا. يا إلهي، لماذا قتل قابيل أخاه؟ من أعطاه سكينه الدموية؟ لقد حملت إبني القتيل بيدي ودفنته تحت شجرة بلوط. ما كان يمكن لي أن أعاقب القاتل أيضا، فلو عاقبته لفقدت ابنين بدل ابن واحد. ولذلك طردته فهام على وجهه في البرية، ولم أره بعد ذلك أبدا. نظرت في وجهه قبل أن أرد عليه باستخفاف، آملا أن أثير الاضطراب في قلبه:

– هل تعتقد أنني مسؤول عما تفعله البشرية؟ إسمع أيها السيد الذي يشبه آينشتاين، لقد رأيت ما يكفي من الخراء فوق الأرض حتى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآن.

ضحك الرجل وقال لي بمودة:

– لا تزعل يا آدم. كل ما في الأمر هو أننا ننفذ أمرا صادرا الينا. لقد أردنا أن نعرف رأيك في البشرية، وهذا كل ما في الأمر.

ثم ابتسم لي مواسيا:

– صدقني أن الخراء موجود في كل مكان وليس فوق الأرض وحدها.

أبتعد عن السجن، مفكرا في ما يفعله السجناء. لا بد أنهم يقفون الآن في صف طويل أمام المراحيض، منتظرين دورهم بينما يطلق الحارس الريفي الطويل نكاته السمجة. اقترب من حديقة بارك السعدون التي تملؤني بالألفة مثل رجل عائد إلى بيته. انسل بين أشجارها. انني وحيد هنا. أية سعادة أن يكون المرء وحيدا بعد كل تلك الأعوام الطويلة في السجون. ها هي الأشجار تقف، رافعة رؤوسها إلى الأعلى، متطلعة إلى شمس مقطوعة بغيوم. ريح خفيفة تمر بين الأغصان فأسمع هسيسها. كان المطر الخفيف قد توقف. أوراق فوق التراب الندي. فضاء مفتوح أمامي، فضاء يمتد ثم ينتهي ببيوت واطئة تلتمع شبابيكها من بين الأغصان. ريح ورمل وهذه الأصوات الهادرة القادمة من الشوارع. ألقي بحقيبتي فوق الأرض وأجلس فوق العشب ثم أخرج الكتابين اللذين اشتريتهما بالدين وأتصفحهما. كنت قد قرأتهما فيما مضى ولكنهما ضاعا مع كتبي الكثيرة التي

كانت تضيع دائما.

أعتقد أنني كنت متعبا. هذا ما يحدث لي كثيرا عندما أبحث عن شيء فلا أجده. أعرف أنني كنت أقف ضائعا هناك، تنهش الحيرة بأظافرها الطويلة صدري، سائلا نفسي: هل أتقدم الى الأمام أم أحمل جثتي على كتفي وأعود إلى الوراء؟ لم أكن أملك أجوبة وإنما أسئلة، أسئلة كثيرة ومريرة. وهكذا نمت، لاجئا إلى أحلامي، أحلامي التي طاردتني طوال حياتي من مكان إلى آخر، مثل شرطيين يتعقبون لصا هاربا في محطة قطار.

كم من الوقت ظللت ممددا هناك في تلك الحديقة المهجورة حتى أفقت من نومي، لا أعرف أن أقول ذلك. ربما مرت علي لحظة واحدة أو ربما الأبدية كلها. فقد سمعت صوت دراجة بخارية مسرعة بين ممرات الزهور. وعندما رفعت رأسي رأيت رجلا يقف تحت ظل شجرة ثم يتجه نحوي. كان من الصعب أن أتبين ملامحه، إذ كانت الشمس في عيني. ثم بدأ قلبي يدق بعنف عندما رأيته يقف أمامي منتهكا وحدتي ويبتسم لي. سألت منفعلا:

– من أنت أيها الغريب؟ وماذا تريد مني؟

جلس الرجل على الأرض لصقي وقال بحزن:

– آه، من يعرف ذلك تماما. قبل أعوام، أعوام طويلة جدا عشت كإنسان في مانتوا، وكروح اشتغلت دائما دليلا للنفوس الضالة. أنا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فرجيل الذي رافق دانتي ذات مرة عبر أرض الأموات. جئت لأكون دليلك في هذا العالم.

صرخت مندهشا:

– الشاعر العظيم، فرجيل! ياله من شرف لي!

– دعك من هذا الهراء! كل ما في الأمر هو أنه قد أوكل الي مهمة قيادتك بعد أن ظللت تضل الطريق المرة تلو الأخرى.

قلت فزعا وقد انتبهت إلى الخطر المحيق بي:

– إلى أين تريد أن تقودني؟ أنا ميت إذا. أنت تقود الأموات وحدهم، أليس كذلك؟

ضحك فرجيل وحاول أن يهدئ من روعي:

– ما هذا الذي تخرف به يا رجل؟ ألا ترى أنك ما زلت حيا؟ ألا ترى يديك كيف تتحركان وعينيك كيف تلتمعان مثل لؤلؤتين؟

– ماذا تريد مني اذن ما دمت لست ميتا؟ أكيد أنني لست دانتي.

ضحك فرجيل هازا رأسه:

– دع دانتي المسكين يرقد بسلام في قبره! لا أريد أن أرى هذا الأحمق مرة أخرى. لقد أحرجني حقا عندما ترك العنان لخياله وروى قصة مضحكة عن الآخرة، مليئة بالاختلاقات والعواطف. كوميديا تصلح أن تكون حكاية للأطفال في ليالي الشتاء.

صرخت غاضبا:

– إذا كنت الآن تشتم شاعرا عظيما مثل دانتي، هكذا بكل

استخفاف، فما الذي ستقوله عني فيما بعد؟ إنني لست أفضل منه بالتأكيد. ينبغي أن تعرف ذلك.

رفع نظره إلي وقال:

– حسنا، لا ينبغي لك أن تفقد أعصابك يا آدم. كل ما في الأمر هو أنني سأكون دليلك بعد الآن. إنني لست سوى موظف، ينفذ الأوامر.

أردت أن أضحك. فقد بدت لي القصة كلها فكاهية حتى أنني جاهدت لإخفاء عواطفي. قلت ممازحا:

– يخيل إلي يا ملاكي الطيب، أنك تقاعدت وافتتحت مكتبا سياحيا في الجحيم بعد أن كنت شاعرا عظيما. هل أنت حقا فرجيل الذي امتلك ناصية البلاغة وسحرني ببيانه؟

– أنا هو يا بني. ولكن ألا تعرف أن الموتى لا ينظمون الشعر؟ إنهم لا يفعلون شيئا غير السهر على راحة الأحياء.

ما الذي يريده هذا الأحمق الذي ينتحل اسم فرجيل مني؟ أكيد أن أحدا ما أرسله ليتجسس علي. لا بد انه يريد أن يقودني عبر الجحيم إلى الجنة كما فعل مع دانتي حتى قبل أن ينتظر موتي. هل يعتقد أنني أعمى حتى يمسك بيدي؟ ينبغي أن أقول له ذلك. يمكنه أن يفعل ذلك مع الموتى، أما أنا فلست ميتا. لقد اعترف هو نفسه بذلك. اللعنة، لم يعد ثمة مكان أستطيع أن أفلت فيه من عيونهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الراصدة التي تراقب كل فعل من أفعالي. في السجن كان هناك المأمور الذي يتابعني بنظراته التي كانت تثقب جلدي حتى وأنا داخل زنزانتي. في المنفى كان هناك دائما جواسيس الإقامة الذين ملأوا اضباراتهم بالمعلومات عني حتى أصبحت أمامهم شفافا مثل قنينة. وهنا في مدينة الأشباح كان هناك دائما الكاهن الأعلى، ذاك الذي نصب نفسه ملكا للزمان والذي ما كان يكف عن الإعلان عن نفسه في التلفزيون، رغم أن أحدا لم يره قط. كان غائبا دائما بينما الآخرون حاضرون أمامه، يعرف كل شيء عنهم. ربما كان الناس يبالغون في قدراته السحرية هذه، ولكن لا شك أن جواسيسه في كل شارع ومحلة، يراقبون الجميع في غدوهم ورواحهم. وفي السماء كان ثمة أولئك الذين يسجلون في دفاترهم حسناتي وسيئاتي، إذ كنت متهما منذ البداية. وكان علي أن أقف مرة أخرى أمام المحكمة التي سوف تضع حسناتي في كفة ميزان اليكتروني دقيق جدا وسيئاتي في كفة ثانية. اللعنة، هذه اللعبة لا تعجبني، فأنا لست مدينا لأحد حتى أعامل بهذه الطريقة المهينة. إنني أرفض أن أكون لعبة بيد أحد. كلا، لست هاملت الذي كتب عليه أن يكون كائنا مأساويا حتى بدون أن يكون قد ارتكب أي جرم. عيون في كل مكان، ترصد رجلا مغلولا إلى كرسي إعدام. ما يزعجني ليس الكرسي الذي أجلس عليه وإنما تلك العيون المحدقة بي من وراء الغرفة الزجاجية. أخرجوا هذه الزهور المنداة بالغاز السام من غرفتي واذهبوا إلى بيوتكم! دعوني أنم بسلام!

حدق فرجيل في وجهي قليلا قبل أن يقول:

– لا ينبغي أن تضطرب يا آدم. كنت أريد أن أقول لك منذ البداية أن صديقك القديم غودو هو الذي أرسلني إليك. إنه يبعث إليك بتحياته. كان يود أن يحضر بنفسه، ولكنك تعرف كم هو مشغول.

فكرت انه غودو إذن. كيف فاتني ذلك؟ أضاف فرجيل معتذرا:

– كنت أريد أن أكون في انتظارك أمام بوابة السجن، لكن وقود دراجتي البخارية نفد في الطريق فاضطررت أن أجرها حتى محطة تعبئة الوقود. لقد عرف غودو الذي يعرف كل شيء أنك تحتاجه حتى إذا كان غرورك قد منعك من انتظاره.

قلت شاعرا بالاطمئنان:

– أي غرور يا فرجيل! لقد تعلمت أن أكون واقعيا منذ زمن بعيد.

جلس فرجيل على العشب ازائي وسألني:

– لا بد أنك أمضيت أياما صعبة في السجن.

قلت:

– آه، مثل كل المرات السابقة. لم يعد ثمة ما هو جديد هناك.

– أعرف، أعرف.

ثم وضع يده على كتفي بإخاء:

– لا بأس، لا بأس. سوف يدبر غودو أمورك هذه المرة أيضا.

أخرج علبة سيجاير من جيبه وقدم لي سيجارة، أشعلها بنفسه ثم راح يدخن هو الآخر، متكئا بمرفقه على العشب. بعد قليل أضاف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قائلا:

– أنت تعرف أن غودو لا يخذل أحدا. أرجو ألا تكون قد صدقت أنت أيضا ذلك الكاتب الايرلندي، صاموئيل بيكيت الذي أشاع بين الناس ان غودو يخذل الذين ينتظرونه؟

قلت:

– ربما أراد أن يخفف من أعبائه. لا يمكن لأحد أن يمد يد المساعدة إلى الناس كلهم. أنت تعرف أن الجميع سوف يحتاجونه ذات يوم في هذه المدينة.

قال فرجيل:

– إنه يبذل ما في وسعه يا آدم. كان على بيكيت أن يعترف بذلك على الأقل. ولكن دعنا من ذلك الآن. لقد عثر لك غودو على عمل حتى تدبر أمورك. بدون نقود سوف تهلك يا آدم في هذا العالم. هيا انهض لنذهب إلى الرجل. إنه ينتظرنا.

قلت مستغربا:

– أي عمل يا فرجيل؟

– لقد تحدث غودو مع رئيس تحرير إحدى المجلات فوافق على تعيينك محررا فيها. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ إنه عمل يناسبك بالتأكيد.

ثم أضاف وهو يتطلع إلي:

– هيا لنذهب إليه. لا يجوز أن نترك الرجل ينتظرنا طويلا.

صعدت خلفه على دراجته البخارية التي انطلق بها، مخترقا شارع الجمهورية باتجاه باب المعظم ومن ثم إلى الصرافية. في المكتب عانق رئيس التحرير فرجيل وصافحني قائلا:

– تستطيع أن تبدأ عملك منذ اليوم إذا شئت.

رد فرجيل:

– ليس بهذه السرعة يا رجل. لقد غادر السجن قبل ساعات قليلة فقط.

قلت:

– سوف أبدأ العمل بعد يومين أو ثلاثة. لا بد من تدبير بعض الأمور أولا.

دخل الفرّاش ووضع استكانات الشاي أمامنا على المنضدة من صينية كان يحملها بيديه. قال رئيس التحرير الذي قدرت أنه في الخمسين من عمره، ضاغطا باصبعه على نظارته:

– سوف نكون أصدقاء طيبين يا آدم.

ثم مد يده إلى درج منضدته وأخرج مظروفا مغلقا، قدمه لي:

– فكرت أنك قد تحتاج إلى بعض النقود لتدبر أمورك. إنها سلفة حتى تستلم راتبك. عندما غادرنا المكتب شكرت فرجيل على ما فعله من أجلي، إلا أنه صعد فوق دراجته البخارية وأدار محركها، قائلا:

– إن غودو ينتظر تقريرا مني. إنتبه إلى نفسك يا آدم في هذه المدينة اللعينة! سوف أعود إليك ثانية لنبدأ رحلتنا الكبرى الى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفردوس.

ثم انطلق غائبا في الزحمة بين السيارات.

عدت مرة أخرى إلى وحدتي. كان مظروف الدنانير في جيبي. ها أنذا طليق ثانية. قبل ساعات لم أكن أعرف ما أفعله بحياتي. أما الآن فيمكنني أن أسير واثق الخطى وأن أشم رائحة الشارع وأحتفل بحياتي. أردت أن أصعد في حافلة توقفت قريبا مني. ولكن كلا ليس أجمل من أن تسير وحيدا في الشارع تحت الشمس وأن تفكر في نفسك. انني في شارع الرشيد. أترك العنان لرجلي تقودانني كيفما اتفق. لم يكن ثمة مكان بالذات أقصده. كان علي أن أعثر على فندق أبيت فيه، ولكن كان ثمة الكثير من الوقت لأفعل ذلك، فالليل لن يحل قبل ساعات. ولم يكن ثمة ما أفعله. كان مقهى البرلمان يضج كالعادة برواده. دخلت وجلست على تخت في مواجهة الشارع. وضع النادل أمامي استكانا من الشاي، بدون أن يسألني. لا بد أن الجميع يشربون الشاي هنا. أدرت نظري على التخوت. لم يكن ثمة أحد أعرفه. فيما مضى كنا نتحلق جميعا حول طاولة واحدة ونثرثر حول الشعر والسياسة، محتسين الشاي المحروق، استكانا بعد آخر. أشعربالأسى بعض الشيء. لا شيء يظل على ما هو عليه. كل شيء يتغير.

في الطريق أمر بتماثيل كثيرة، تفوح برائحة البول. لا بد أن السكارى يتبولون في آخر الليل على دكاتها الجصية البيضاء التي كتب عليها بالصبغ الأحمر "البول هنا للحمير". أين يبول الناس إذا؟ لا بد من أماكن يتبول فيها الناس، النساء أولا ومن ثم الرجال. التماثيل في كل مكان أكثر رأفة. يمكنك أن تختبئ خلفها وتبول على هواك. هناك مناظر مضحكة حقا في هذا العالم. كان ينبغي أن أزور عاهرة بعد هذا الغياب الطويل داخل الجب. جيبي مليء بالدنانير. انتبهت إلى أنني لم أفتح المظروف حتى الآن. ما اسم المجلة التي سوف أعمل فيها؟ لقد نسيت أن أسأل عن ذلك. ولكن ماذا يهم؟ كل المجلات جيدة ما دامت مليئة بالإعلانات. مارلبورو، كوكاكولا، خطوط لوفتهانزا، عطر دينوف. ماذا ينبغي أن أكتب يا الهي؟ هناك أمور كثيرة تستحق الكتابة عنها. ولكن قبل ذلك كله أين يمكن العثور على عاهرة في مثل هذا الوقت؟ ممنوع، قال الشرطي الذي أوقفوه أمام أحد الأزقة في الميدان. لا عاهرات بعد اليوم ولا هم يحزنون. الثورة منعت ذلك بقرار رسمي. لم تبق سوى دور الدعارة السرية.. هيا اغرب عن وجهي يا ولد والا أخذتك للحبس. كل ذلك بسبب شكوى تقدم بها السيد بدر شاكر السياب. المومس العمياء. كان غاضبا لأن الذين ضاجعوا عاهرته العمياء كانوا جنودا أجانب، هنودا وبريطانيين وبولنديين وليسوا عراقيين. العاهرة العربية الأصيلة لا تضاجع سوى العرب الأقحاح. هكذا هم الشعراء. ما إن يشربوا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كأسا أو كأسين من العرق حتى يغمرونا بأسئلتهم. وماذا في ذلك؟ الأعمال الأدبية تثير الأسئلة دائما، من قبيل: قل لي لماذا جعلت بطلك يسير في شارع الرشيد وليس في شارع السعدون؟ الجواب: لأنه قضى أوقاتا عصيبة وكان يبحث عن عيادة نفسية. كان جاك عبودي العجوز مخبولا هو الآخر. ذهبت إليه بعد قراءة كافكا وقلت له: في كل ليلة أتحول إلى حشرة كبيرة وأختبئ تحت السرير. هل تعرف ماذا قال لي وهو يسعل مدخنا سيجارته؟ ذلك طبيعي يا بني. ثم كتب لي حبوبا مقوية للباه. يهودي مألوف. طلب دينارا لما أسماه فحصا، ولكنني أعطيته نصف دينار. لم يكن ليستحق أكثر من ذلك. كان من الواضح أنه لم يقرأ كافكا. فلو أنه كان قد قرأه لما مد يده، طالبا مني نقودا، كما لو أنني حشرة بالفعل.

في الماضي أسمع آهة الفتاة التي كانت ترتدي معطفا من الفرو وتسير في شارع المينزا في لايبزغ. تتوقف وتنتظرني. قلبي يدق مثل ساعة مضطربة. هيا قل ما تريده ولننته من هذه المطاردة السخيفة. فتاة جريئة. عيناها تومضان بلمسة دعارة خفيفة. نسيت أن أعد النقود في المظروف. لماذا لا يترك غودو لي رقم هاتفه حتى اتصل به عندما تسيء الأمور. طلبت منه ذلك ذات مرة فضحك وقال لي: "ليس هناك هواتف في السماء." رجل مشغول كثيرا. إنه لا يشبه على أية حال فرجيل الأصلع الذي يقول انه روح خالصة، منقاة من كل شائبة. روح

صلعاء، تتكور فوق رأسها قبعة. قلت:

– أنت تشبه روبرت ميتشيم. دعني ألق نظرة على بروفيلك من جهة اليسار. لا تنقصك سوى أسنان اصطناعية جيدة.

تقول فتاة معطف الفرو:

– خذ حذرك. إنني أعض.

– ذلك يضفي على الأمر إثارة أكثر.

– في السرير؟

– بالطبع. أم أنك تفضلين العض على البساط؟

دعوتها إلى كأس فانحدرنا إلى قبو بار البلدية الذي كان يضج في ذلك الوقت من النهار باللواطيين والسحاقيات.

فرويلاين شميدت. عيناها تبرقان، حاملة مظلتها معها. قبعة حمراء فوق رأسها. التقيتها في القطار ما بين كولونيا وبرلين. كل الفتيات متشابهات. ما تكاد تكلم إحداهن حتى تشعر أنك تمثل في فيلم. كانت تقول لرجلين جالسين على المقعد لصقها:

– في الأزمنة الغابرة كان المسرح يستمد رسالته من الكنيسة. بعد موت الكنيسة أي رسالة بقيت للمسرح؟

قال أحد الرجلين:

– مات الله، قال نيتشه. دستويفسكي استنتج ما نعرفه اليوم: إذا كان الله قد مات فكل شيء محلل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال الرجل الآخر:

– سيان عندي إذا كان قد مات أو لم يمت. لقد خرج الأمر من يده على أي حال.

قلت:

– ربما أصبح الفن هو الإنقاذ الأخير.

تتطلع الفتاة الي. كانت ممثلة، لا تزال متأثرة بدورها في مسرحية "الفيزيائيون" لدورينمات:

– يا إلهي، أنت تهتم بالفن أيضا. حقا إنك تشبه هاملت. بماذا تحلم يا هاملت؟

أقول:

– لقد حلم ذلك الأحمق دائما بإنسان النهضة. إنسان النهضة مات منذ زمن بعيد. لم يعد ما يمكن أن يحلم به هاملت الآن سوى الإنسان الروبوت.

تقول ضاحكة:

– ليذهب إلى الجحيم!

أفكر انني قد أكون روبوتا. ذلك طبيعي. الروبوتات لا تموت. فما داموا يأخذونني في كل مرة معهم ويستبدلون أعضائي التالفة بأخرى جديدة فلا بد أن أكون روبوتا Made in Heaven. لا تكن سخيفا يا آدم. ها أنت تتآمر لتغوي فرويلاين شميدت على الذهاب معك إلى شقتك. الروبوتات ضد النساء. هذا ما يعرفه الجميع.

في المحطة الأولى في برلين غادر الرجلان اللذان كانا معنا العربة. استحوذت نظراتها المشفقة على قلبي. قالت:

– إنني أحضر مؤتمرا للفنانين. لقد حجزوا لي غرفة في فندق "اونتر دين ليندن" لثلاثة أيام. يمكننا أن نقضي أياما جميلة معا إذا لم يكن ثمة ما يشغلك.

– ماذا يمكن أن يشغلني؟

في المطر الرذاذ نسير على رصيف المحطة، وفي يدي حقيبة سفرها الجلدية، ضائعين بين المسافرين.

أخرجت دنانيري من المظروف وبللت إبهامي بلساني ورحت أعدها. عشرون دينارا. لا بأس، لا بأس. لقد ضمنت حياتي. ناديت النادل وطلبت منه أن يجلب لي علبة سيجاير "روثمان". هكذا أنا، ما أكاد أحصل على بعض النقود حتى أنسى كل إفلاسي السابق. وضع العلبة أمامي. نسيت الثقاب يا ولد. أشعل لي سيجارتي وترك علبة الثقاب أمامي على المائدة. أشعر بالخدر يسري في أعضائي كلها فاستسلم ليد خفية فوق رأسي، تمسد شعري. ما زال كل شيء في بدايته. ما زالت الحياة أمامك يا آدم. وانتبهت إلى ضجة الجموع في الشارع: إنها الحياة. شعرت مرة أخرى بمتعة أن أترك القياد لرجلي تحملانني إلى حيثما تشاءان فنهضت مغادرا المقهى، خارجا إلى الشارع. أعتقد أنني سرت حتى ساحة التحرير.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أسرع يا آدم ولا تنتظر طويلا. إنهم وراءك دائما، يتعقبونك من شارع إلى شارع، لا بد أنهم يترصدونك منذ زمن طويل وأنت لا تدري كالعادة. لقد جاؤوا من كل مكان، بازغين من بين القرون. إنهم يملأون المدينة كلها. هل تعرف هذا الجالس في المقهى، يحتسي قهوته ويقرأ في الجريدة؟ لقد التقيته في مكة في الجاهلية. لا ينبغي لك أن تنساه. تذكر جيدا ما قاله لك. يمكنك أن ترافق قافلتنا إلى الشام، إذا دفعت مئة درهم. كل قافلة تحتاج إلى فرسان يحمونها من هجمات اللصوص. كان رجلا طلق المحيا، بلحية قصيرة وشوارب تنحدر فوق الفم، وكان على حق، فدفعت المبلغ عن طيبة خاطر من صرة كنت تشدها إلى حزامك. هناك في طور سنين ذقت لأول مرة التين والزيتون. ترى ما الذي يريده الآن منك؟ إنه تاجر على أي حال. ربما جاء الآن ليعقد صفقة جديدة معك. رجل ليس خطرا على الإطلاق. كل ما في الأمر هو أنه لا يضر ولا ينفع. أعتقد أنهم كانوا يدعونه أبا لهب. لقد ترك امرأته وفي جيدها حبل من مسد في الفندق وخرج يسترق السمع إلى ما يقال في المدينة.

لا يبدو أن الزمن أثر عليهم كثيرا. إنهم يملأون الشوارع والمقاهي والحانات، كما كانوا يفعلون في الماضي. إنهم موجودون دائما يتنزهون في الحدائق، أبطال هاربون من روايات منسية، شعراء وكتاب في إجازة، مجرمون يقطعون أجساد ضحاياهم بالبلطات، أنبياء يتلون تعاليمهم على العصاة وجنرالات يضعون خططا لحروب جديدة.

ورغم أن كل شيء كان على ما يرام فقد داخلني شعور غريب بالكآبة، مثل رجل فقد دفعة واحدة كل أمل في العالم. كان في إمكاني أن أحس بنبض روحي واضطرابها المنعكس فوق وجهي. أذكر أني توقفت أكثر من مرة أثناء هبوطي سلالم العمارة التي كنت قد استأجرت شقة فيها. وهي شقة تطل على النهر، أراقب من شرفتها عادة صيادي الأسماك، ينحدرون بقواربهم حتى المياه العميقة ليلقوا بشباكهم في النهر. لم يكن ثمة سبب واضح لاضطرابي وشعوري بالملل من الجميع. كنت أريد أن أبتعد عنهم لولا أن قوة أخرى في داخلي كانت تدفعني إلى الشارع. في الشارع تنفست الصعداء، ربما بسبب الريح الباردة التي كانت تهب من جهة النهر، باعثة الحياة في أعضائي الخاملة، ورحت أقول لنفسي "يا إلهي ما أصعب ذلك كله!" كان ينبغي علي أن أسير دائما إلى الأمام، مرددا مع نفسي "إن كل هذا يبدو أشبه بمسرحية شيطانية. لم يعد قلبي قادرا على احتمال المزيد من الصدمات. كل ما أريده من العالم هو أن ينساني. ولكن واأسفاه، اذ ما دمت تعيش لا بد لك من أن تقف في قلب العاصفة. الدم الذي يجري في عروقك يقول ذلك."

كنت أطلب السلام مع العالم. وكان يمكن لي أن ابتهج وأكون سعيدا لولا ذلك القلق الذي ظل يفتك بصدري مثل يد من معدن ويجعلني أشعر بمرارة كل شيء، تلك المرارة التي أشعر بها دائما في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فمي وأتذوقها بلساني. جاهدت أن أنسى كل ذلك، سائرا في الشارع مثل رجل جرع قارورة كاملة من النبيذ حتى انتهيت الى حانة، كان يقصدها الشعراء والكتاب، حيث توجد غرفة خلفية، يمكن للمرء أن يقامر فيها حتى الصباح. هناك أمام الحانة وقف سكير يبول على شجرة، وهو يشتم ويلوم حظه العاثر في كل شيء. ثم استدار وقال لي فجأة: "هل تعرف أنني رجل حقير جدا؟ أنت لا تعرف ذلك، أما أنا فأعرفه. إنني حقير رغم أنني طيب القلب أحيانا. إن ذلك يزعجني. أريد أن أكون حقيرا دائما أو طيب القلب دائما." قلت له مواسيا: "ليس ثمة ما يقلق في الأمر. إنك لست الإنسان الحقير الوحيد على وجه الأرض بالتأكيد." رد الرجل: "إنني أقول ذلك دائما لنفسي." ثم أطلق ضحكة قصيرة، جعلته يترنح في مكانه، وأضاف بمودة: "هذا أكيد. لا بد أنك أنت أيضا إنسان حقير، مثل الجميع." وإذ رآني فقدت الاهتمام به عبر الشارع إلى الرصيف الآخر، مغنيا بصوت عال أغنية شعبية، كنت أعرفها أنا الآخر.

وقفت مترددا. لم أكن أعرف إن كان ينبغي علي أن أدخل أم لا. ولكنني سرعان ما قضيت على ترددي ودخلت إلى الحانة التي كان المرء يهبط إليها بسلالم. شعرت فجأة بالرغبة في أن أشرب كأسا أو كأسين من البيرة لأطرد الضباب الذي كان يملأ رأسي. وفكرت: ربما كنت جائعا. إلا أنني لم أجد الرغبة في أن آكل أي شيء. كان الطعام نفسه يشعرني بذلي، أن تملأ جوفك حتى تكون قادرا على أن تحرك

يديك ورجليك. ورأيت نفسي أغرق في الضباب، قطعة، قطعة. ولكنني تماسكت، قائلا لنفسي "كن يا آدم الرجل الذي كنته دائما." ألقيت بنفسي فوق منضدة في زاوية مظلمة بعض الشيء وطلبت كأسا من البيرة. ما كدت أشرب جرعة كبيرة حتى شعرت أنني أستعيد توازني وأن كل شيء على ما يرام. مثل هذه اللحظات الممتلئة بالكآبة كانت تهيمن علي بين الحين والآخر، ولكنها كانت لحظات عابرة، أعرف أنها سوف تنتهي هي الأخرى.

كانت الحانة صاخبة بعض الشيء، ولكن شيئا من الهدوء أخذ يعود إليها بعد أن انصرف سبعة أو ثمانية أشخاص، كانوا يجلسون على مائدة واحدة ويصخبون بطريقة ملفتة للنظر. كان الضوء في الحانة شاحبا وهو ما جعلني أشعر بالاختباء عن أعين الآخرين، حتى أنني لم أحاول أن أنظر إلى أحد وظللت أشرب، غائبا عن العالم، مستمتعا بوحدتي.

فجأة شعرت بكف ما فوق كتفي فالتفت بطريقة لا شعورية. كان أحد ما يبتسم في وجهي: "ماذا تفعل في حانة الأدباء الموتى؟" ثم جرني من يدي وقال: "تعال انضم إلينا. لا ينبغي أن تسكر لوحدك. إفعل ذلك في الشعر وحده." قلت مبتهجا: "ما كنت أتصور أن أجدك هنا يا رامبو!" كان هذا الذي انتهك عزلتي شاعرا، تعرفت عليه ذات يوم في حانة باريسية أيام الكومونة. نهضت وانضممت إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المنضدة الأخرى، حيث قدمني إلى صديقه فيرلين الذي ظل يحدق في وجهي، مدخنا قبل ان يمد يده من وراء كأسه، نصف الفارغة، فصافحته، كما لو أنني أؤدي واجبا.

أخذ فيرلين يدمدم مع نفسه بكلمات غامضة، جعلت صديقي يصرخ به: "ألا يمكن أن تسكت قليلا؟ دعك من هذه السخافات." تجاهل الأمر، كما لو أنه لم يسمع شيئا، محتسيا من كأسه جرعة بين الحين والآخر، بدون أن يكف عن دمدمته. خشيت أن يشتبكا بالأيدي في آخر الأمر. ولكنني كنت مخطئا فقد انضم رامبو إليه وراحا يرغوان بصوت موحد.

عدت ثانية إلى مائدتي وطلبت قنينة من النبيذ. كان المساء لا يزال في أوله ولم يكن ثمة ما أفعله. ولذلك رحت أشرب وأراقب الزبائن الذين كانوا يدخلون ويخرجون بدون انقطاع. وفجأة رأيته يقف هناك أمام الباب، مرتديا بذلة رثة، مثل موظف هارب من الخدمة. إنه دستويفسكي. لا أعرف متى التقيته، ولكن كان من الواضح أنه يعرفني جيدا. طلب قنينة من الفودكا وجاء، حاملا اياها في يده، حيث ألقى بنفسه على كرسي أمامي. ثم رفع رأسه بعد قليل وقال لي بكل برود:

– كيف جرؤت على المجيء الى هنا يا آدم؟ ألا تعرف أن حياتك مهددة بالخطر؟ كان من الأفضل لك أن تختبيء عن العيون.

ثم أضاف بمكر بعد قليل:

– كنت أريد أن أحذرك منذ زمن طويل ولكنك كنت غائبا. أين كنت؟

قلت مستفزا:

– ومم تريد أن تحذرني؟ ما الذي فعلته؟

نظر إلي متأملا قبل أن يقول:

– أنت لم تفعل شيئا، ولكن ثمة من يدبر لك شيئا في الخفاء. إنه يريد قتلك. الجريمة الكاملة. هل تعرف؟

إنتابني الرعب:

– أنت تريد أن تفزعني، لا بد أنك تمزح يا دستويفسكي.

مد يده وضغط بكفه على كتفي:

– إنني لا أمزح أبدا. ينبغي أن تكون حذرا. هناك طالب مفلس اسمه راسكولينكوف يريد أن يقتلك بالبلطة قبل أن يسرق ما تخبئه من نقود في شقتك. لقد انتظرك تحت السلم أكثر من مرة.

قلت منفعلا:

– لا يجدر بك أن تلعب معي مثل هذه اللعبة. إنني لست صيدا سهلا.

ضحك دستويفسكي:

– حسنا، إدفع حسابي الآن وسأجد حلا لمشكلتك. إننا صديقان بعد كل شيء.

قلت مبتسما:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أنت تعرف أنني أدفع عنك دائما.

فكر دستويفسكي قليلا قبل أن يقول:

– أنت صديقي حقا. سوف أجد له أرملة غنية يقتلها. ذلك أفضل كثيرا. لا تقلق!

ثم نهض، متجها إلى الغرفة الخلفية، ليلعب القمار مثلما يفعل كل ليلة.

انني أقف مرة أخرى هناك. هذا هو الوادي الذي قصدته ذات يوم، تتبعني حواء، في مسيرة استمرت ثلاثة أعوام، حيث بنيت على ضفة النهر الذي كان ممتلئا بالتماسيح والغزلان والفيلة والأسود والثعالب واللقالق أول كوخ في تاريخ البشرية، أطلقت عليه اسم جبل قاف الذي غيرته فيما بعد الى بغداد التي تعني مدينة الملائكة. ولكن من يمكن أن يتحدث عن مدينة للملائكة الآن؟ الجميع يعرفون أنها مدينة للشيطان بعينه. ربما كانت مدينة للملائكة ذات يوم. غير أن كل شيء قد تغير. مدينة بألف وجه تختنق بالسيارات والبشر. من لا يقتله الضجر هنا؟ دخان يتصاعد وصراخ يصم الأذان، تطلقه أبواق سيارات تسير على الأرصفة، وخطى أبطأ من خطى السلحفاة. في الشتاء تجرف السيول كل ما يصادفها وتغرق السراديب التي يتكدس فيها البشر. وفي الصيف تغلي الأدمغة داخل عظام الرأس. مدينة حواة يحملون أكياسا مليئة بالأفاعي دائما على ظهورهم ويخيفون بها

السابلة ورجال دين يقفون في الساحات العامة ويلقون مواعظهم عن يوم القيامة، قريبا من عجريين يلعبون السي ورق. الفنادق تعج بالعاهرات والأزقة بالمحتالين والعميان والمجانين واللواطيين والقتلة المأجورين. ولكن ما من أحد يغادر متاهة الميناتور أو حتى يريد ذلك. الفراق صعب دائما. بدل أن يترك الناس هذه المدينة تراهم يتدفقون إليها على حميرهم وبغالهم وجمالهم أو داخل شاحنات مفتوحة. كانوا يأتون إلى هنا دائما من القرى والمحافظات الأخرى هاربين من الجوع الذي يفتك بهم. في البداية يرتدون ملابس الشرطة، متباهين على أقرانهم وأخدانهم من الأعراب التائهين في البراري. وبعد عامين أو ثلاثة يرتدون زي بغداد الوطني، سروال أبيض، حذاء أبيض، وقبعة بيضاء. قوافل بعد أخرى تكتسح الحقول التي تحيط بها أو تقلع أشجار الغابات. في كل عام تزداد العمارات ارتفاعا وتنخسف الأرض قليلا، قليلا. وماذا في ذلك؟ إن المرء يستطيع هنا على الأقل أن يشتري الحظ السعيد. الحظ السعيد لا يولد مع المرء. فلكي تكون سعيدا لا بد من أن تبذل جهدا في سبيل ذلك. هنا تستطيع شراء وجبة من السعادة في بيوت الأشباح التي تنتشر في كل مكان، أمام الفنادق والمكاتب والحوانيت وبيوت السكن وعلى السطوح أو في الحدائق القديمة.

ثمة دائما غجريون قادمون من الجبال، وقضاة عسكريون، تتدلى سيوفهم من أحزمتهم، يجلسون على منصات عالية، وقتلة محترفون تؤجرهم مكاتبهم بالساعات، وهي مكاتب زجاجية أنيقة تقع دائما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الطوابق العليا من البنايات، حاملة أسماء شركات دولية، وسياسيون مخضرمون يجلسون على الكراسي أمام دكاكينهم المزركشة بالأشرطة الورقية الملونة وحفارو قبور حسب الطلب وباعة دم يقفون أمام المستشفيات، حاملين قنانيهم في أيديهم وصيادو ضفادع لكليات الطب ورجال دين بلحى طويلة أو قصيرة مصبوغة بالحناء ومجانين يجلسون فوق سطوح السيارات، معلنين عن معجزات جديدة. وفي الشوارع يمكن للمرء أن يلتقي موظفين غارقين حتى آذانهم في امتهان الصيرفة أو زراعة الفلفل والمانغو والبابايا لحساب الراجات الهنود الذين كانت سفن الهند الشرقية تجلبهم من جاوة وبوغي وسومطرة، هاربين من سكان الأحراش الذين كانوا يلقبون أنفسهم بالأورانج أسلي. وعلى الرغم من التعليمات الصارمة فانهم لم يكفوا عن عادةالسير وراء نسائهم أو مغازلة الفتيات بتلعيب الحاجب، وهي عادة مجوسية دخلت البلاد عن طريق السيخ والايرانيين الذين يعملون موظفين في دوائر السكك الحديد والبريد أو شرطيين يتولون حماية أندية البريدج الأجنبية، ضمن تسويات سرية يسمونها تسويات علي بابا.

أبدية وما من يقظة.

أعتقد أنني ضحية مؤامرة، دبرت لي في الخفاء. كل شئ يبدو ملتبسا حتى لكأنني في حلم لا نهاية له. ماذا أفعل هنا؟ أعتقد أنني

سقطت من كوكب آخر. ولكن ماذا حدث هناك لأهرب إلى هنا؟ لا بد أنني كنت في كوكب مهدد بالكارثة. القنبلة الذرية؟ كلا، كلا، هذا يبدو كثيرا. كل ما في الأمر هو أنهم قذفوا بي خارجا، ربما داخل صاروخ أو بمظلة نحو هذا الكوكب الذي لم اختره. ربما انحدرت من السماء بطائرة أو منطاد. ذلك معقول والا لتمزقت إربا، إربا. لم أعد أذكر ذلك تماما، فما حدث حدث قبل زمن طويل جدا. في الحقيقة ان الوقائع السعيدة وحدها تظل عالقة بالذاكرة بينما يختفي ما عداها. لا أريد أن أشكو من حظي العاثر، فقد كانت ثمة مفاجآت دائما، مفاجآت في المجهول الذي رميت بنفسي داخله. ربما كنت في الجنة. أجل يخيل إلي انني كنت هناك. كل شئ يبدو لي الآن واضحا. كنت جالسا إلى جنب حواء فوق العشب عندما جاء ملاك ما إلينا وقال غاضبا:

"ما كان ينبغي لكما أن تخالفا تعليمات الإقامة" ثم سحب جوازي سفرنا بفظاظة وختمهما بكلمة كبيرة ملأت الصفحة كلها: «ملغى» وقال هازئا: "يمكنكما الآن أن تبحثا عن جنة أخرى". وهكذا اقتادوناعنوة إلى مطار ما ثم وضعونا داخل طائرة أقلتنا إلى هنا، حيث كان ينتظرنا شرطيون وضعوا الأغلال في أيدينا وذهبوا بنا إلى مصح للأمراض العقلية. قصة قديمة تجعلني أشعر بالمرارة في حلقي كلما تذكرتها، قصة كان ينبغي أن أنساها منذ قرون طويلة.

الباب الحديد الأسود للمصح يصر. نظام موجه كهربائيا عبر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قضبان تتحرك آليا. سلاسل من الأسلاك الشائكة والربيع يترك وروده في الأرض الحرام. تقف هناك وتنتظر الحارس الكسول ليفتح كوة في الباب، حيث يطل وجه مربع وعينان مقنعتان بالقصدير. انتظر، يقول، ثم تسمع صوت المفتاح الثقيل يدور في القفل مرتين. من هنا، يقول، وتسير وراءه. الرنين نفسه. ألأبواب الحديد نفسها.

لا أعرف كم مكثت في ذلك المصح المرعب الذي كان يفوح برائحة المراحيض والأسفينيك. أعتقد أن قرونا مرت علي قبل أن يطلق سراحي. كنت مشبوها بصورة ما. تلك الأيام الصعبة انتهت أيضا. فقد وصل غودو الذي لم أكن قد التقيته من قبل، ذات يوم، حاملا معه مذكرة من مدير الأمن فأطلق سراحي. كان غودو في الحقيقة في طريقه إلى فلاديمير واستراغوف اللذين جعلهما صاموئيل بيكيت ينتظرانه عبثا تحت شجرة في الوادي أو ربما في غرفة خانقة، بيد أنه غير وجهته في آخر لحظة وجاء إلي رغم إنني لم أنتظره قط. ولسوء حظ المسكينين فإنه قد نسيهما تماما بعد ذلك، حيث ظلا ينتظرانه إلى الأبد. رجل يمتلك سلطة استثنائية على الجميع حتى اعتقدت أنه ربما كان وراء كل شئ يحدث في الكون. ورغم أننا أصبحنا صديقين حميمين فإنه ظل مغلقا علي حتى النهاية. كل ما قاله لي هو أنه اعتاد أن يمد يد المساعدة إلى الذين ينتظرونه. وقد قدم لي الكثير من العون حقا، فبعد أن أخرجني من المصح الذي لم يكن سوى سجن معتم أقام

حفلة كبيرة على شرفي، دعا اليها كثيرا من الذين كنت قد سمعت بهم أو قرأت أخبارهم في كتب التاريخ. كانت حفلة لا تنسى، حضرها الإسكندر المقدوني بدرعه وخوذته وصقره الجاثم فوق كتفه، امرؤ القيس بسيفه وحصانه وقربة خمره، نابليون بنياشينه وقلنسوته المثلثة المضحكة، هوميروس والمعري بنظارتيهما السوداوين وعصاتيهما، المسيح بصليبه الذي كان يحمله على ظهره وفوق رأسه تاج الشوك، يتبعه يهوذا، مطلقا قبلاته في الهواء، إبليس الشيطان، مرتديا بذلة سوداء وفوق رأسه قبعة رمادية مثل بروفيسور في الجامعة، يوسف وقد قد قميصه من دبر وفي يده صرة ثيابه الملطخة بالدم إذ أكله الذئب عند فوهة البئر، زليخة فوطيفار التي لم تكن تكف عن النظر في وجهه، مفتونة ومسحورة، ستالين، فاتلا شاربه الفلاحي الكث، بلقيس في هودجها، قاصدة الملك سليمان، تحيط به طيوره ووحوشه وعفاريته، مسيلمة الكذاب داخل خيمة مع سجاح، السندباد عائدا من رحلاته السبع، والأخوان ماركس وأنجلز، حاملين معهما أعمالهما الكاملة.

لقد أقنعني غودو أن أحضر الحفلة مع حواء التي كانت لا تزال على قيد الحياة، عاريين إلا من ورقة التوت، تماما كما في الجنة. يبدو أنه كان سوف يصعب على ضيوفه أن يتصوروني وأنا أدخل الصالة، مرتديا بذلة كحلية أو معتمرا قبعة من تلك القبعات التي يضعها الشيوخ فوق رؤوسهم في أوروبا أو أن يروا حواء وهي تهز أردافها،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مرتدية فستان سهرة أسود، مفتوحا حتى الفخذين.

كان إبليس قد لمحني من بعيد فتقدم نحوي، هاشا، باشا، يتبعه يهوذا الإسخريوطي الذي مد رأسه ليقبلني، فصددته بفظاظة:

– دعنا من القبل يا يهوذا.

ابتعد عني دون أن تفارقه ابتسامته الماكرة. قال إبليس هازلا:

– ما زلت نفس آدم الذين عرفته.

وإذ سمعت غودو ينادي علي اعتذرت وأسرعت مبتعدا، سامعا ابليس يردد بصوت عال:

– أنت تعجبني يا آدم. إنني أباركك.

عائدا في آخر الليل إلى شقتي الواقعة على النهر وجدته هناك ينتظرني تحت السلم في الظلام. كان يرتدي معطفا خلقا، عريضا بعض الشيء ويخفي تحته شيئا ما، خمنت أنه بلطة، ويعتمر قبعة عتيقة، كبيرة جعلها تنحدر فوق جبينه، بحيث صعب على أن أميز ملامحه. إنه راسكولينكوف بالتأكيد. لا بد أن دستويفسكي ظل يلعب القمار، مثلما يفعل كل ليلة، فلم يغير في قصته كما وعدني. إنه بطله بالتأكيد، ذلك الطالب السابق المفلس الذي يعتقد أن من حقه أن يقتل من يعتبرهم رعاعا، إذا كان ذلك يقربه ولو خطوة واحدة من هدفه، باعتباره أحد الذين سيغيرون التاريخ. لقد وعدني دستويفسكي أن يجد له أرملة ثرية وبخيلة، يقتلها بدلا عني. لا بد

أنه نسي ذلك أو ربما فعله غدا. وقفت مبهوتا للحظة وأنا أحدق فيه. ظل هو الآخر في مكانه. ثم سمعته يقول بصوت متهدج، ماكر: "آسف لأنني قصدتك في مثل هذا الوقت. لقد ظللت أنتظرك طويلا هنا تحت السلم." تمالكت شجاعتي وقلت له: "ماذا تريد مني أيها السيد؟ إنني لا أعرفك." رد برباطة جأش، ولكن بدون أن يحاول الاقتراب مني: "أريد أن أرهن علبة سيجاير فضية. ها هي انظر!" أراد أن يتقدم نحوي، ولكنني زعقت بوجهه: "لا تحاول الاقتراب مني!" قال متوسلا: "ألا يمكن أن نصعد إلى شقتك؟ سوف أوضح لك الأمر هناك." قلت له وأنا أتراجع إلى الخلف: "إذهب واعثر لك على أرملة مرابية تقتلها، واتركني بسلام." ثم أسرعت وخرجت إلى الشارع، مطلقا رجلي للريح ولم أتوقف لألتقط أنفاسي إلا عندما بلغت الشارع العام، حيث كانت ثمة مقاه مفتوحة وسابلة، عائدون من العروض الليلية الأخيرة التي تقدمها دور السينما.

شوارع كثيرة ذرعتها. لا بد أنني ظللت أتنقل من مكان إلى آخر حتى ساعة متأخرة. ربما جلست في مقهى أو دخلت حانة. كل ما أذكره "هو أنني كنت متعبا عندما ارتقيت سلالم فندق ما في شارع الرشيد بعد أن تأكدت من أنه قد فقد كل أثر لي. سوف أنام الليلة هنا. لن أذهب إلى شقتي إلا إذا تأكدت من أن دستويفسكي قد عثر على ضحية مناسبة لبطله المجنون. كان شبح راسكولينكوف، حاملا بيده بلطته، منتظرا اياي تحت السلم، ماثلا أمامي. ولكنني نسيته

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حالما اقتادني خادم الفندق إلى غرفة مليئة بالأسرة. أعتقد أنني نمت وأنا في طريقي إلى السرير الذي كان الخادم الريفي قد أشار باصبعه إليه.

صباح جميل يتسلل من النافذة. أسمع جرس باب شقتي يرن. أريد أن أواصل النوم حتى ينصرف الزائر، ولكن بدون جدوى، فالجرس يرن ويرن. ليس ثمة بد من أن أنهض وأغادر سريري ببيجامتي الزرقاء المقلمة بالأبيض وأفتح باب الشقة، حيث أرى فرجيل يطل علي بقامته الطويلة وصلعته الملتمعة واقفا في المدخل:

– العاشرة صباحا وأنت لا تزال نائما. هيا انهض أيها الكسلان. الطائر المبكر يصطاد الدودة.

ثم راح يرتل بايقاع رتيب، مثل راهب في كنيسة:

– الطائر المبكر يصطاد الدودة.

لم أكن قد استيقظت تماما من نومي، إلا أنني رأيت الشمس المشرقة في الخارج عبر نافذة الممر التي ركنت في حافتها أصص نباتات، اجتذبتها الشمس فالتصقت أوراقها بالزجاج واحترقت أطرافها. أغلقت باب الشقة، متثائبا ثم زعقت بصوت أجش:

– حسنا فعلت يا دودة الصباح إذ أيقظتني من نومي. نهار جميل آخر. لا فائدة من النوم.

عائدا إلى الغرفة تعثرت بالكتب والأوراق المرمية فوق الأرض.

مددت يدي وأزحت الستارة الزرقاء جانبا ثم فتحت النافذة، مطلا على الشارع، حيث صدمتني أصواته الضاجة وشممت رائحة النهر الذي كانت تمتد على ضفته القريبة مقاه، لم تكن قد فتحت أبوابها بعد، وسمعت فرجيل يقول من الممر:

– لم أكن أنوي إزعاجك. جئت لأبول فقط. تستطيع أن تواصل النوم إذا أردت.

شتمته مداعبا:

– أيها الحقير، ألا يوجد مكان آخر تبول فيه؟

دخل فرجيل المرحاض، بدون أن يغلق بابه:

– إنني أمزح يا آدم. جئت لأخذك معي. لقد بدأت الرحلة.

قلت:

– لا شك أنك تريد أن تقودني إلى الجنة مثلما قدت دانتي ذات مرة.

رد فرجيل بصوت حزين وبطريقة غامضة:

الرحلة وحدها هي ما يهمني يا آدم !

– ولكنني سوف أصل الجنة ذات يوم. أليس كذلك؟

– هذا هو السؤال الذي ينبغي أن تجيب عليه بنفسك.

قلت يائسا:

– هنا، ليس ثمة سوى الحياة والموت في نهاية المطاف. ولكنني لن أعترف بذلك أبدا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عاد فرجيل إلى الغرفة، ملقيا بنفسه فوق مقعد في مواجهة مرآة كبيرة معلقة على الجدار، محدقا في وجهه المتغضن مثل مؤخرة فيل في حديقة حيوان، ثم في شعره المنسدل حتى الرقبة من الجانبين حيث تلتمع بقعة صلع اجتاح مقدمة رأسه، كما لو أنها قشرة بيضة مدهونة، ألصقت بجلده. شعرت برغبة في أن أمد يدي وأمسد تلك البقعة المتلألئة، الا أنني قاومتها بعناد. التقط فرجيل أوراقا كانت مرمية فوق الأرض، وهو يبتسم:

– قصائد جديدة تحت الأرجل. ضعها فوق المنضدة على الأقل.

كنت لا أزال متكئا على النافذة، مطلا برأسي على الشارع. قلت:

– كنت قد علقتها بدبوس على الجدار.

أمام باب العمارة في الشارع لمحت البواب جالسا على كرسيه، يدخن فناديته بصوت، جاهدت أن يكون عاليا:

– منصور، هات لنا فطورا مع الشاي. عندي صديق.

وجاء صوت منصور، واهنا من الشارع:

– هل تكفي أربع بيضات؟

– طبعا تكفي. هل تعتقد أننا ثيران؟

قال فرجيل وهو يتطلع إلى الأوراق قبل أن يضعها فوق الطاولة:

– حسنا فعلت يا آدم. الحب يأتي من المعدة، كما تعرف.

– أي حب تتحدث عنه وأنت تريد أن تقودني إلى الجحيم؟

ارتسمت بسمة خفيفة على طرف فم فرجيل فقال وهو يلمس

صلعته بأطراف أصابعه:

– لا تكن جبانا يا آدم. الجحيم في داخلك، والمسيح الدجال ينتظرك في الطريق. بدوني سوف تضيع.

زعقت في وجهه:

– وماذا في ذلك؟ سوف أعثر على الطريق في النهاية. وحتى إذا لم أعثر عليه فليس ثمة الكثير الذي سوف أخسره.

ثم رأيت أن أغيظه فرحت أغني بمكر:

هذا فرجيل الشاعر

فليأخذه الشيطان إليه.

رفع فرجيل عينيه محتجا:

– لا تكن ناكرا للجميل. لقد جئت لأكون دليلك وأنقذك من الفخاخ المنصوبة في طريقك. وها أنت ذا تشتمني مثل أي ناكر للجميل، بدوني سوف تهلك أيها المجنون.

كففت عن الغناء لحظة:

– لا ينبغي أن تتبجح كثيرا، فما أنت سوى موظف عند غودو، ينفذ ما يطلب منه. أراد فرجيل أن يحتج على لهجتي هذه غير أنني دخلت المرحاض وأغلقت بابه ورائي.

عندما عدت كان منصور يضع صينية الطعام على المنضدة فوق الكتب. قلت:

– ارفع الصينية لأبعد هذه الكتب اللعينة. حملت كومة من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكتب وقذفت بها فوق الأرض:

– هذه الكتب سوف تقتلني ذات يوم.

وكشر منصور الذي كانت تغطي وجهه لحية، أشبه ما تكون بعشب مترب، عن ابتسامة مداهنة:

– أنت تقرأ كثيرا يا أستاذ، ينبغي أن تهتم بصحتك.

ثم أضاف وهو يغمز لي بطرف عينه:

– وصلت شهرزاد قبل قليل. هل أدعها تصعد إليكم؟

قلت:

– شهرزاد ألف ليلة وليلة، دعها تصعد يا رجل.

ثم مددت يدي إلى جيب سترتي الملقاة فوق المقعد وأخرجت ورقة نقدية، دسستها في كفه، فغمغم بكلمات مبهمة وخرج. قلت:

– رجل طيب، يقوم بكل ما يطلب منه. فهو يعمل بوابا وقوادا ويجهز الطعام لأمثالنا من الكسالى. هذا الذل في عينيه، يا إلهي، لكم يخيفني!

– رجل مقرف يشبه الضفدعة.

ليس من العدل أن تقول عنه ذلك. إنه موردي الذي لا ينضب من البنات. لا بد أنك مشتاق مثلي إلى شهرزاد التي تخون شهريار في النهار وتروي له القصص في الليل. كن ضيفي، بشرط أن تدفع عنا، نحن الاثنين، فأنا مفلس كالعادة، كما تعرف.

هز فرجيل رأسه باستخفاف:

– كلا لا أريد ذلك.

– كان منصور قد ترك باب الشقة مفتوحا فدخلت شهرزاد، دون أن تقرع الجرس ونزعت عباءتها، ملقية بها فوق السرير وجلست على حافته، قائلة:

– من منكما سيكون الأول؟

ثم نظرت بازدراء إلى فرجيل:

– ليس هذا الأصلع بالتأكيد.

أطلقت ضحكة مدوية:

– إنه لا يحب البنات.

مطت شهرزاد شفتيها:

– لا بد أنه مثقف معقد مثل أصدقائك الآخرين.

– إنه فرجيل. ألا تعرفينه؟

– اسم مضحك لم أسمع به. ماذا يعمل؟

قلت:

ماذا يهمك من عمله؟ إنه يعمل دليلا سياحيا في الجحيم.

ثم دفعتها من كتفها إلى الغرفة الأخرى، مغنيا:

هذا فرجيل الشاعر

فليأخذه الشيطان إليه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طيلة أيام ظل فرجيل يجرني وراءه من مكان إلى آخر. في البدء قادني إلى اوتوستراد طويل، لم أكن قد رأيته من قبل وقال لي:

– من هنا يبدأ الطريق.

ألوف من الناس، يسيرون وعيونهم محدقة في الأفق البعيد. جموع تسير صامتة، حاملة معها حقائبها أو جارة وراءها عرباتها. أذكر أننا عبرنا محطات كثيرة واجتزنا أنهارا وتلالا قبل أن نبلغ صحراء لا نهاية لها. قلت لفرجيل محتجا:

– أي دليل أنت يا ملاكي الأمين! سوف أهلك قبل أن أخرج من هذه المتاهة. لماذا لم تجلب معك دراجتك البخارية يا فرجيل؟ كنت تستطيع أن توفر علينا كل هذا العناء.

– لا دراجات تسير هنا يا آدم. ذلك ممنوع تماما.

– اللعنة مرة أخرى. هل كنت بحاجة إلى هذه الرحلة التي لا أعرف حتى الغرض منها؟ لماذا كل ذلك؟ انني لست ميتا على اي حال.

– لقد كنت دائما رحالة يا آدم، حتى إذا لم تعترف بذلك.

أردت أن أعود أدراجي، ولكن لم يكن ثمة سوى الرمل والعاقول. ها أنذا وحيد مرة أخرى. كان فرجيل قد اختفى فجأة، كما لو أن الأرض ابتلعته. ممتلئا باليأس تهالكت على كثيب رملي ورحت أدخن، آملا في أن يكون كل ذلك حلما أستيقظ منه بعد حين. ثم سمعت فرجيل ينادي علي من وراء صخرة.

– لا ينبغي أن تظل جالسا هنا مثل شيخ متقاعد. أعتقد أن الوقت قد حان لنجرب حظنا في هذه الصحراء. هيا انهض أيها الكسلان.

التفت إلى الوراء، وقد امتلكني الفرح رغم تظاهري بعدم الاكتراث:

– أنت ثانية أيها الرجل الدودة.

رد فرجيل بعجرفة، نافضا الرمل الذي تراكم فوق شعره:

– حذار من شتمي يا آدم، فأنا دليلك في هذه الصحراء. بدوني سوف تهلك لا محالة.

سار فرجيل فتبعته. كنت في حلم لا نهاية له داخل مدينة تظهر طورا وطورا تختفي حتى تلاشت في النهاية من الوجود. أقول لنفسي: لا يمكن لمدينة بأكملها أن تختفي هكذا دفعة واحدة. ثم أتذكر ان الصحف كانت تنشر بين الحين والآخر أخبارا عن اناس اختفوا بدون أن يتركوا وراءهم أثرا يدل عليهم، عن سيارات أو حتى عن طائرات وسفن. أما أن تختفي مدينة بأكملها فكان أمرا لا يمكن حتى التفكير به. غير أن ذلك ما حدث. أفكر: ربما لا يوجد زمن هنا. فإذا كان الأعراب قد رأوا في صحرائهم قبل ألف عام مدينة بعيدة، قائمة في الضباب فها أنذا أرى صحراء من الرمل والعاقول. أهي العودة ثانية إلى الماضي؟ لم أكن متأكدا. فبصورة ما كنت موجودا دائما في الماضي، حيث غيوم وبروق ورعود. وكنت أعرف ان ماضي على الأقل لا يزال حيا، ينبض داخل قلبي، بدونه لا أكون موجودا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان فرجيل يسير فوق الرمل مثل بدوي أمضى عمره كله في الصحراء فناديت عليه:

– إلى أين تقودني أيها المجنون؟

توقف لحظة، قائلا:

– إلى لا مكان.

ثم تابع سيره. بدت لي كلماته مرعبة، ولكن لم يكن ثمة بد من أن أتبعه، فصرخت: كنت أعرف أنك تقصد هلاكي. من يمكن أن يقطع هذه القفار ويبقى حيا؟ ثم ولكي أهدئ روعي رحت أغني بصوت عال:

هذا فرجيل الشاعر

فليأخذه الشيطان إليه.

في الفضاء الذي لا نهاية له ظل صوتي يدوي، مختلطا بالرمل الذي تسفه الريح.

بعد رحلة طويلة، طويلة جدا أسمع من بعيد نباحا وأرى غابة تغلق الأفق كله أمامنا، نصلها في عز الظهيرة.

كان كلب الجحيم المربوط بسلاسل من حديد إلى صخرة يعوي أمام البوابة المفتوحة والشرر يتطاير من عينيه. أخذت أسناني تصطك من الخوف فأمسكني فرجيل برفق من يدي وقادني محاذرا الكلب ذا الأنياب البارزة إلى الغابة التي كانت غارقة في الضباب:

– لا تخف يا صديقي. إننا لم نضع بعد.

– أليس هذا هو الجحيم يا فرجيل؟ ها هو كلب الجحيم يريد أن يفتك بي. لماذا تنكر ما لا يخطئه حتى الأعمى؟

– إنه ليس سوى كلب مثل أي كلب آخر.

كانت رجلاي ترتجفان حتى خيل إلي أنهما لم تعودا تقويان على حملي. قلت كمن اكتشف عبث اللعبة فجأة:

– لماذا كل هذا؟ ألا يكفي ما رأيته حتى الآن؟

– هذا سؤال ينبغي ان توجهه الى غودو، وليس الي.

قلت محتجا:

– هذا الطريق سلكته من قبل، فلماذا ينبغي أن أسلكه ثانية؟

تجاهل فرجيل سؤالي وراح يحث الخطى، متلفتا يمينا ويسارا:

– هذا هو الطريق بالتأكيد. إنني أعرف تماما.

كان الدرب الذي سلكناه بين الأشجار ضيقا بعض الشيء ومهجورا. تبعت دليلي الذي كان يسير بخطوات واثقة. صمت ثقيل يخيم على الغابة كلها. ما من طيور تغرد أو ريح توشوش بين الأشجار. كانت السماء نفسها قد اختفت فعرفت أننا نسير داخل نفق طويل. ورغم أنني كنت خائفا فإن ثمة عاطفة عميقة في داخلي كانت تدفعني إلى رؤية المجهول. كان كلب الجحيم لا يزال يعوي عندما التفت فرجيل إلي، مبطئا السير وقال:

– في كل مرة أصل فيها هذه المدينة أشعر بانقباض في الروح.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخذ الطريق يرتفع قليلا، قليلا ثم انفتح أمامنا واد عميق انحدرنا إليه، متجهين نحو خرائب مدينة مهجورة.

سألت دليلي:

– أي مدينة هذه؟ إنني لا أكاد أعرفها.

صمت فرجيل ولم يقل شيئا. خرج شبح من بين الأنقاض ونادى من بعيد:

– لا أحد هنا في أوروك يا كلكامش. لقد تخلى عنا اوتونوبشتم ورحل بعيدا. لا شيء هنا سوى الموت

قلت، مخاطبا فرجيل:

– رجل معتوه في مدينة ميتة.

عندما اخترقنا المدينة لم نر سوى الجرذان تتراكض بين الأنقاض المكومة في الشوارع وعلى الأرصفة. تابعنا الشبح فترة من الزمن وهو يطلق صرخات حيوانية، تحملها الريح إلينا. ثم اختفى داخل الخرائب.

أية طرق هذه يا فرجيل؟

أرض مستوية تحوم فوقها الغربان والعنادل، أرض حقول خضراء تمتد حتى الجبل الذي هبط منه زرادشت، قاصدا مغارة بوذا البعيدة، حيث جنود من الكوركه والسيخ يلتهمون المعلبات داخل الربايا مثل تماثيل من حجر. مدافع قديمة فاغرة الأفواه: ثمة ثوار من كشمير ينتظروننا برياتهم الخضر، حاملين بنادقهم على أكتافهم. لست جنديا

يا فرجيل. في الحروب أذهب وأعد الضحايا. لا بد من التوثيق حتى يقوم السلام. هنا بين غابات النخيل تمر القوافل في طريقها إلى البصرة. كنا قد تركنا الكوفة وراءنا. أرض الله المحروقة. من هنا مر الشمر، رافعا رأس الحسين على رمحه. أوليست هذه بغداد بأسواقها العامرة المليئة باللصوص والشحاذين؟ صاعدا في دجلة أرى أكرادا يقودون بغالهم في شعاب جبال، تكسوها الثلوج وفتيات يزيديات يقبلن من نبع حار في حمام العليل. هذه ديار بكر القديمة. هربنا مع قوافل الأرمن، يتبعنا الأتراك بسيوفهم وخناجرهم. على ضفة نهر الكنج المقدس وجدنا الجثث، يلتقطها صائدو العظام بصناراتهم. في البنغال عبرنا مستنقعات الورود على جذع شجرة وفي سيلان تجولنا في الأسواق على ظهور فيلة بيض في الشمس الساطعة. في الصين سرنا فوق سورها العظيم ثم عدنا سيرا على الأقدام إلى ايران التي كانت الثورة تشتعل في شوارعها، حيث رجال يعتمرون العمامات ونساء مجللات بالتشادر. عمر الخيام في السجن. بحثنا عن سعدي الشيرازي طويلا. كان قد هرب هو الآخر إلى المنفى، حاملا معه قصائده. أهذا هو البحر المتوسط الذي عبرته سفن الصليبيين القادمة من جنوى؟ في أوروبا انتقلنا مختبئين داخل عربات قطارات الشحن. جبال الالزاس الصاعدة في الضباب الذي يحك ظهره بالبيوت. بحيرات لوزان التي تجمد في الشتاء. صعدنا برج ايفل مع السواح وسكرنا مع رسامي الشوارع في ايطاليا. في ألمانيا وقفنا وسط الشارع في المطر، منصتين إلى روزا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لوكسمبورغ، داعية إلى الثورة. هناك التقينا لينين في قطاره المغلق، قادما من المنفى. وهمنا على وجوهنا مع تولستوي في قرى الأقنان. في سيبيريا اختفينا في كهوف الدببة مع متآمرين، كانوا يضعون الخطط لاغتيال القيصر.

أية أزمنة هذه يا فرجيل؟

كلدانيون في المغاور. آشوريون يعودون من حروبهم، جارين وراءهم عرباتهم، سومريون يرصدون النجوم في أفلاكها. فراعنة يملأون قواربهم باللآلىء والحلي، عابرين نهر الحياة إلى الآخرة. مجوس يوقدون نيرانهم أمام بيوتهم في الليالي المظلمة، منتظرين الاسكندر المقدوني عند جبال حمرين في طريقه إلى فارس.

أية مدن هذه يا فرجيل؟

نحن في الصحراء مرة أخرى، نقصد الماضي. هناك فقدنا كل شعور بالزمن، بسبب الحمى التي كانت ترج جسدينا وربما بسبب العطش والشمس المحرقة. رمال لا نهاية لها ومشاهد تتكرر، حيث لا شيء سوى فضاء يمتد، ملتصقا بالأفق. إنه نفس الأفق الذي كنت قد شاهدته ألف مرة من قبل. ثمة دائما شريط هائل من الضوء في النقطة التي تمس فيها السماء الأرض. كانت سدوم تمتد هناك أمامنا في البعيد. إنه السراب، السراب الذي لاحقناه، السراب الذي كان يهرب دائما أمامنا. وتذكرت أن ثمة أخبارا تاريخية تقول ان قوافل البدو

القادمة من بعيد كانت ترى دائما، حيث نهضت سدوم بعد ذلك سحابة هائلة تغطي أبراجا متوهجة وقلاعا وقصورا مثل علامات هادية في قلب الصحراء، سوى أنها كانت إشارات خادعة مثل أي سراب آخر، إذ لا يكاد المرء يقترب منها حتى يجد نفسه وسط فلاة قاحلة مثل أي فلاة أخرى. وهنا تتوقف الأخبار التاريخية. بيد أن في وسع المرء أن يخمن أن ثمة ما كان يجتذب هؤلاء الذين كانوا يقطعون الصحراء فوق جمالهم إلى سدوم، بحيث أنهم اعتادوا مع الزمن أن يقصدوها ويضربوا خيامهم فيها، آملين في أن تسفر المدينة الخفية عن نفسها ذات يوم. إن المرء ليردد حتى الآن "ربما لم يكن كل ذلك وهما". فالكتب التاريخية التي لا يمكن الشك بنزاهة كتابها تروي أن رجال القوافل كانوا يرون من مسافة يوم كامل نوافذ البيوت ونقوشها والفتيات اللواتي يقفن على الشرفات، يسقين أصص النباتات والزهور. وشطح الخيال ببعضهم فتحدث عن طيور بحجم البيوت تحلق فوق المدينة التي لم تكن موجودة.

بابل تمتد هناك أمام أعيننا. هذيان رأسين مطمورين في الرمل. ذلك المعلم اللعين، ذو الشعر المنسرح الطويل كان يكرهني. ذهب ليجلب البدو من البادية. أعرف أنهم سوف يقطعون ألسنتنا. إنهم يصلبون أعداءهم على جذوع النخيل جوار كلاب مشنوقة، تتدلى ألسنتها في القيظ. ها ها ها ها. لا بد أن قطارا سيمر من هنا. لقد وضع موسى اليهود في شاحنات نيرن طويلة وعبر بهم الصحراء. دعني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أقبلك يا معلمي. البدو قادمون فوق جمالهم. ها ها ها. أنت يا فرجيل هل تسمعني؟ أنت عنكبوت يصطاد حشرة. ها هنا توجد حشرة مضيئة. خذ تفاحتك يا سيدي وخلصنا. مدير الشرطة يجلس في المقهى، يلتهم قطعة من كعك العسل. سوف أذهب وأشكوك إليه. الفتيات الصغيرات يمرحن في كرويزبيرغ، مقبلات، مدبرات. قبلهن واحدة بعد الأخرى يا أخي، وليأت بعد ذلك الطوفان.

أسمع فرجيل يعوي مثل ذئب:

– لا تستيقظ يا آدم، دع الديك يصح ثلاثا قبل ذلك.

أشعر بالمرارة في فمي، سامعا الديك يصيح من بعيد، أقول:

– أبشر يا فرجيل، لقد وصلنا شعاب الجنة أخيرا.

عندما أفتح عيني أرى نفسي مكوما فوق مقعد طويل داخل شاحنة، لصق فرجيل وثمة عيون تحدق فينا. يبدو أن أحدا ما يغني أبوذية ريفية حزينة، غير أنني أغلق عيني وأنام.

استيقظت ثانية. كانت يدي مغلولة إلى يد فرجيل الذي كان يتحدث إلى شرطي، يتكئ بذقنه على ماسورة بندقيته. سمعت الشرطي يقول:

– أمركما يثير الشبهة. ما الذي تفعلانه في هذه الصحراء المجدبة؟ ربما كنتما هاربين من الجندية أو جاسوسين متسللين. لا يمكنكما أن تدعيا أنكما من البدو، أليس كذلك؟

كان ثمة شرطي آخر يجلس في مواجهة صاحبه وأربعة سجناء يغطون في النوم. قلت وأنا أرفع يدي المغلولة ألى يد فرجيل:

– ما هذا؟ إننا لسنا مجرمين.

رد الشرطي الذي كان يمسد شاربه الكث بأصابعه:

– لقد أنقذنا حياتكما من موت محقق. كان ينبغي عليكما أن تشكرانا على ذلك.

وتدخل الشرطي الآخر:

– ما الذي فعله صاحبك؟ كنت تهذي، متهما اياه بقيادتك إلى الجحيم. هل فعل ذلك حقا؟

حدجته بنظرة احتقار:

– هذه قصة قديمة، قديمة جدا.

ابتسم الشرطي ذو الشارب الكث:

– اطمئن. سوف يحقق المفوض معكما عندما نبلغ بغداد. واذا لم يكن ثمة شئ ضدكما فإنه سوف يطلق سراحكما بالتأكيد.

ثمة حزن ما، ينحدر من رأسي المصدوع إلى رئتي فيشعرني بالاضطراب. ربما كان عاطفة جديدة، انفجرت في مكان ما من قلبي. كنت مأخوذا رغم رعبي بهذا العالم الذي وجدت نفسي مقذوفا داخله. لقد أمضيت أعواما طويلة من حياتي وأنا أتنقل بين مدينة وأخرى، خلفتها جميعها ورائي، تاركا آثاري على جدرانها وفوق شوارعها المغطاة بالأسفلت. لم أكن آسفا، فقد أردت دائما أن أذهب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى الصحراء وأهيم على وجهي فيها. كانت رغبة مجبولة بالجنون. لم يكن ذلك سهلا على رجل مثلي. كان يمكن للذين يعرفونني أن يقولوا: ما الذي يمكن أن تعثر عليه هناك؟ لا شيء سوى رمال ميتة وسماء كابية. آه، لكم كانت السماء دانية حتى ليخيل إلى المرء أنه يستطيع لمس نجومها بيديه لو ارتقى سلما عاليا بعض الشيء! هل كانت الزقورات سلم الكهنة العراقيين القدامى إلى السماء؟ لا شيء أقرب إلى المرء في الصحراء من السماء في الليل. أهذا هو السر الخفي لأنبياء الصحراء؟ ربما، ربما. كان في امكانهم دائما أن يشعروا بقرب الله منهم، بل وحتى أن يروه وهو في عليائه، يحدق في قوافل الجمال تحته، قاطعة الصحراء.

كان الوقت ليلا عندما قال أحد الشرطيين وهو يفتح الباب الخلفية للسيارة المتربة:

– شكرا لله اننا قد وصلنا بغداد سالمين. محدقا من وراء زجاج نافذة السيارة قلت:

– لا بد أنك تمزح. لا يمكن لهذه القرية أن تكون بغداد.

وتدخل فرجيل:

– بل إنها هي. أنت لم تعرف بغداد أبدا.

هبطت أنا وفرجيل بقفزة واحدة من السيارة، رافعين يدينا المغلولتين إلى بعضهما عاليا. طلب منا الشرطي ذو الشارب الكث أن نجلس على الأرض. انحنى فرجيل وأفرغ فردتي حذائه من الرمل الذي

كان قد تسرب إلى داخلهما.

– هذه الرمال اللعينة.

كان المعتقلون الآخرون ينقلون أمتعتهم التي جلبوها معهم. قال الشرطي وهويعيد لف اليشماغ المقلم الأحمر على رأسه:

– السفر في الليل مخاطرة حقا. البادية تغير شكلها كل يوم.

ثم راح يروي قصة كان قد عاشها قبل شهور عندما أضاعوا الطريق في الليل وتاهوا في الصحراء، إذ غطست سيارتهم في الرمل وحاصرتهم ذئاب ظلت تحوم حولهم:

– بحثنا عن ضوء يرشدنا إلى مضارب البدو. لم تكن هناك سوى الظلمة.

ثم جلس هو الآخر، واضعا بندقيته أمامه:

– كانت ليلة صعبة، كدنا نموت فيها من البرد بينما تلتمع عيون قطيع الذئاب في الظلام. كانت قد شمت اللحم البشري فأصيبت بالهياج. اضطررنا إلى أن نتبول من فتحة في نافذة السيارة. كان من الصعب أن نغامر بفتح الباب، حيث يترصدنا الخطر.

لم يكمل الشرطي قصته، إذ جاء الآخرون فسرنا جميعا في الظلام الذي كانت تبدده فوانيس مخفر الشرطة القريب. وضعونا في غرفة عارية، قفلوا بابها وانصرفوا. كنا منهكين حتى الإعياء. تمددنا فوق الأرض ونمنا، غير آبهين حتى بالكلاب التي ظلت تنبح طوال الليل أمام المخفر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الصباح التالي جاء المفوض وأطلق سراحنا حتى بدون أن يسأل عن إسمينا، قائلا:

– لسنا دارا لإيواء المشردين.

وجدنا نفسينا مرة أخرى على قارعة الطريق في مدينة لم تكن سوى معسكر للجنود وشرطة البادية. مدينة أشباح، نابتة في الرمل. بضعة حوانيت، تبيع بضائع مهربة من السعودية والكويت ومقهى يؤمه الجنود ورجال الشرطة وأعرابيون يمضون نهاراتهم، متكئين على التخوت، يحتسون الشاي ودكان خياطة صغير يملكه أرمني كان يعتمر دائما قبعة من القش، واضعا فوق عينيه نظارة شمسية سوداء تمنحه أبهة غير متوقعة في قلب هذه البادية. ولكن كان ثمة قبل كل شيء ذلك الحصن الهائل، ذو الأسوار والأبراج العالية، حيث يقف الجنود، وراء مدافعهم الرشاشة المصوبة نحو الصحراء، وهو حصن أقامه العثمانيون في أواسط القرن التاسع عشر لجنودهم الذين كانوا يرسلون إلى هذا المنفى لمطاردة الأعراب الذين غالبا ما كانوا يغيرون على المدن الواقعة في حوض الفرات وينهبونها. من هنا أيضا كانت تمر قوافل الحجاج القادمة من الأناضول والعراق في طريقها إلى مكة، يحرسها جنود يتبعون أدلاء من البدو فوق جمالهم. وتذكرت أنني كنت أسيرا هنا ذات يوم، في الحصن الكبير الذي لا يخرج منه من يدخله إلا ليذهب إلى القبر. لقد نجوت في النهاية كما نجوت دائما. حفرنا نفقا

تحت الجدار وانسللنا في الليل المظلم إلى الصحراء. كنا أربعة أسرى عائدين إلى الحياة. الأول افترسته الذئاب. الثاني مات من العطش فدفناه في الرمل. الثالث عاد إلى الحصن طالبا المغفرة. أما أنا فقد بلغت البحر، حيث وجدت سفينة، حملتني إلى قارة أخرى، قارة بعيدة جدا.

آه ماذا يهمنا من هذا الحصن الآن؟ وماذا يهمنا من هؤلاء الأعراب والجنود؟ لم نكن ذاهبين إلى مكة على أي حال.. لقد نسي الجميع القصة بالتأكيد ذكريات قديمة وجروح منسية هي الأخرى. كل ما نريده هو أن نعود ثانية إلى بغداد وأن نخرج من هذا الجحيم الذي قادتنا الأقدار إليه. هذا هو كل شيء.

لا بد أن رحلة العودة استمرت أياما أو ربما قرونا. لا أذكر كيف وصلنا بغداد ثانية. كل ما في الأمر هو أن سيارة توقفت فجأة فهبطت منها مسرعا باتجاه الرصيف وانحنيت، متكئا بظهري على عمود كهرباء وشددت رباط حذائي المحلول ثم قفزت بثلاث أو أربع خطوات إلى الرصيف الآخر كما لو أنني أريد الهروب من أحد يتبعني، وانسللت إلى زقاق يتفرع من شارع الرشيد، يقع على زاويته مطعم هندي يقدم وجبات، مخلوطة بالفلفل والكاري، فتبعني فرجيل بحكم العادة. كان الزقاق قد التف بنا فانتهينا مرة أخرى إلى شارع الرشيد. متاجر أحذية وفساتين نسائية. سيارات عتيقة، لا تكف عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إطلاق مزاميرها. إمرأة نصف عارية تطل من لوحة إعلان أمام دار سينما. التفت إلى فرجيل وقلت له:

– تعال لأقودك يا بني.

كان ذهن فرجيل شاردا بعض الشيء، بيد أنه استعاد نفسه:

– أنت معتوه حقا. يبدو أنك لم تتعلم شيئا حتى الآن.

قلت معاندا:

– أنت تحيرني حقا يا فرجيل. تريد أن تقودني الى الجحيم، رغما عني وترفض أن تضاجع عاهرة فقيرة، تريد أن تعيش.

انفجر فرجيل غاضبا:

– أنت لا تفقه شيئا. أنت لا تفقه شيئا على الإطلاق. تردد كلمات الآخرين مثل ببغاء. سوف أريك الجنة في الجحيم والجحيم في الجنة. ماذا تطلب أكثر من ذلك؟ أنت ضائع يا بني، ضائع منذ الأبد.

قلت:

– كنت أمزح. أنت تعرف ذلك يا فرجيل.

تشبث ماسح أحذية صغير، كان يجلس أمام صندوقه وأصباغه بحذائي، متوسلا:

– مجانا.

جررت نفسي فهوى من مقعده الواطئ على الرصيف. وكان ثمة جندي أمامي قد مد يده ولامس مؤخرة فتاة، انتفضت صائحة:

– أنت أيها الحقير.

ولكن الجندي شتمها، كما لو أنه يتحدث إلى نفسه:

– يا قحبة، من أين لك هذه العجيزة؟

قال فرجيل:

– لقد تعبت. لنجلس في مقهى ما. أريد أن أبول.

كان ثمة مقهى قريب في جهة النهر. قلت، ضاحكا:

– لا بد من أن تعرض نفسك على طبيب. لا أحد يتبول بقدر ما تفعل. هل تجد ذلك طبيعيا؟

– إنها الشيخوخة يا بني. كل شيء طبيعي في هذا العالم. صدقني.

جلست على تخت مرمي فوق الرصيف، محدقا في المارة بينما انسل فرجيل إلى الداخل، باحثا عن المرحاض.

عاد فرجيل أخيرا وجلس على التخت، قريبا مني:

– هذه المدينة اللعينة سوف تدمر أعصابي. هل يمكن أن تتصور مقهى بدون مرحاض؟ لقد سرت حتى ضفة النهر لأبول. تصور ذلك.

– إنني أتصوره.

نادى فرجيل النادل:

– استكان شاي سنكين وقدح ماء بارد.

ثم التفت إلي:

– لماذا تبدو متعبا هكذا؟

– هل نسيت أننا كنا تائهين في الصحراء؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– لقد أنقذت حياتك. أنت مدين لي.

– لست مدينا لأحد. أنت نفسك كنت تهذي طوال الطريق.

– كل الناس يهذون في رحلاتهم.

– لقد قلت لي اننا في بغداد، ولكنها كانت مدينة أخرى.

أطلق ضحكة ساخرة:

– كل المدن هي بغداد يا بني!

– ما كنت أعتقد أنك فيلسوف أيضا.

وضع النادل الشاي أمامه. قال فرجيل، مخاطبا النادل:

– يبدو أنك نسيت الماء.

قال النادل مبتعدا:

– سوف تحصل على الماء. انتظر قليلا.

التفت فرجيل إلي:

– ما زلت تطرح أسئلة ساذجة يا آدم. لماذا الدهشة؟

تملكني الغضب:

– أليس غريبا أن تقودني إلى صحراء لا نهاية لها؟

ابتسم فرجيل بمكر:

– وماذا في ذلك؟

– اللعنة! يبدو أن كل شيء سيان عندك. يا للرعب!

صمت. صمت مطبق.

أغمض عيني فأسمع رجلا آخر يتحدث في مايكروفون داخل مغارة رأسي. هذا الشبح المرعب، إن عينيه تتقدان حمرة مثل عيني قسيس خسر حصانه في سباق للخيل. هذا الشبح الذي يجوس بين البيوت. لقد ضبطته وهو يحدق في النافذة المواجهة لشقته، حيث تخلع المعلمة ثوبها وترتمي فوق السرير. حسنا، قل أنك صليت حتى تنهض لترى ثدييها المندلقين. هل تتذكر كيس الورق الذي بلله المطر فتناثرت البرتقالات في الشارع؟ كان ذلك في رواية لأجاثا كريستي. كاتبة عجوز، دردبيس كانت تقيم في فندق تايكرس بالاس، على بعدخطوات من مقهى البرازيلية. كلا، لم يكن ذلك في رواية للعجوز وإنما في فيلم. ربما كان أميركيا. لا بد أنه كان أميركيا. الأميركيون وحدهم يستخدمون الأكياس الورقية. عادة مقيتة. وماذا في ذلك؟ يقول فرجيل. فليأخذه الشيطان إليه. جاء إلى، بدون دعوة. يريد أن يكون دليلي. ولماذا الدليل؟ إنني أعرف الطريق على أي حال. أعرفه عن ظهر قلب. عائدا من الأعظمية أصل إلى ساحة عنترة أولا. وإذا ما سرت بخط مستقيم فسوف أبلغ ساحة الرحاب، حيث يلتقي المرء فتيات معهد الفنون الذي كان ذات يوم بيتا لنوري السعيد. الممثلات والرسامات يتمشين عادة حتى ساحة الميدان، عابرات وزارة الدفاع التي يرفرف فوقها العلم العراقي. هناك كنت أرى ذلك المعتوه الذي لا يقلم أظافره واقفا ينتظرني ليستدين مني. كان يدخن دائما. قال لي، إنه عالم في الميكروبايولوجي. ثم إذا به يمتهن السحر والشعر. مشعوذ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حقيقي، كان يأكل الزجاج ويمدح أمراء الجزيرة لقاء كيس من النقود. مات فوق عاهرة، كادت تختنق بثقل جسده فراحت تصرخ مفزعة. نقلته سيارة إسعاف وهوعار، كما ولدته أمه. مات على طريقته الخاصة. فليرحمه الله!

– فليرحمه الله.

يقول فرجيل ضاحكا.

وحيدا أجلس في غرفة في مدينة بعيدة، لا يضيئها سوى مصباح باهت. أجلس وأدخن سيجارة بعد أخرى، مستعذبا الدخان الذي يحرق رئتي ويخدر أعضائي، ناسيا حتى أن أزيح الستائر جانبا، فالنهار في هذه المدينة لا يكاد يرى والضوء الذي يتسلل إلى غرفتي واهنا لا يدوم سوى ساعتين أو ثلاث ثم تحل العتمة. إنه الشتاء، الشتاء الطويل. في ذلك الماضي كنت أفكر في الماضي البازغ مثل شمس. كانت بابل هناك في الشرق تمتد ملتمعة في الضوء. وكنت أرى رؤوس الأشجار المنداة والمنائر وقباب المساجد المتوهجة من بعيد. بعد كل الأعوام التي أمضيتها في غرفتي انطفأت تماما. انطفأت النار في داخلي وتركت لي رمادها. رماد فوق الستائر المسدلة، فوق السجادة المنغولية الحمراء، فوق أغطية سريري، فوق كتبي وقصائدي. جالسا على مقعدي الوحيد أشعل السيجارة بعد الأخرى ثم أظل أحدق في الستائر الغامقة المسدلة أمامي.

"ماذا تفعل هنا؟" كان السؤال يباغتني مثل مدية بيد قاتل في الظلام، مالئا قلبي خوفا. لم أكن أبحث عن جواب بقدر ما كنت أريد الوصول إلى قدري الذي كان يفلت مني دائما كلما هممت بالإمساك به. كان سيان عندي أن أبتكر أسئلة أو أن أقدم أجوبة، ما دام ما كان يحدث يحدث خارجي. كنت أشعر أن علاقتي بالعالم قد انتهت ولم أكن آسفا على ذلك. "ما الذي يمكن أن يقدمه العالم لي؟" كنت قد عرفت كل شئ واختبرته. لم يعد يهمني حتى أن أموت. وبصورة ما كنت أعرف ما سوف يحدث بعد موتي. سوف تكون هناك سيارات تمرق في الشوارع ومتاجر تفتح أبوابها صباحا وتغلقها مساء، وحروب تنشب في أماكن بعيدة، يتطلع إليها الناس في التلفزيون ثم يرون فيلم السهرة قبل أن يأووا إلى أسرتهم. أعرف أن الشمس سوف تشرق كل صباح.

كنت حزينا عندما جاءني فرجيل وقادني إلى الماضي، حيث اعتدت مثل موظف مواظب أن أقصد اليوم بعد الآخر مقهى يؤمه بعض الذين أعرفهم. هناك أجلس ثانية، محتسيا فنجانا من قهوة سيئة، متطلعا إلى ساقي النادلة العاريتين، مقبلة، مدبرة وأحدق في الشارع كما لو أنني أنتظر أحدا. هل كنت أنتظر أحدا؟ ربما. لم أعد أتذكر ذلك. كان في امكاني أن أتذكر وقائع حياتي، أما أفكاري فكانت غالبا ما تضيع مني. في أحيان قليلة كنت أتذكر حتى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عواطفي. كنت أستعيدها بعد عشر أو عشرين سنة، ممتلئا بلذة الضباب المحيط بالماضي ثم أرتد على نفسي "إنها عواطفي الآن تجاه وقائع الماضي حتى إذا اعتقدت أنها عواطفي القديمة". لقد انتهى كل ذلك الآن. الأصدقاء العابرون اختفوا أولا ثم أغلق المقهى أبوابه. لم يعد ثمة سوى المرحاض الواقع في الطرف الآخر من الممر والذي تديره قزمتان بلهاوان، كانت إحداهما تحب شابا عربيا تركها فجأة فظلت تسأل عنه أي أجنبي تراه. كانت بربارة غالبا ما تجلس أمام الباب المواجهة لجناح الرجال حيث منضدة صغيرة مغطاة بشرشف أبيض، ذي حاشية مطرزة بأغصان خضراء، تقف عليها طيور تشبه الببغاوات، وتلتهم قطعة من كعكة التوت البري مع فنجان من القهوة السوداء التي كانت تحليها بأقراص السكرين، خشية الإفراط في السمنة. كانت قصيرة جدا وبدينة، بيد أنها ما كانت لتتخلى عن فستانها الأحمر القصير الذي يرتفع فوق الركبة وحذائها المفتوح ذي الكعب العالي الذي كان يطقطق من بعيد وهي تدخل المقهى. وقد اعتادت مع الزمن أن تقف عند المائدة التي كان رواد المقهى العرب يفضلون الجلوس حولها، قريبا من فهد حجري مزمجر في طرف المقصف وتلقي تحيتها المألوفة "نهار طيب". ثم تبدأ بالسؤال عن سلمان الذي كان يتحول عندها إلى زلمان، بسبب طريقة اللفظ الألمانية: "هل هناك رسالة من زلمان؟ لقد وعدني أن يكتب إلي، لكنه لم يفعل حتى الآن. ربما أصابه مكروه." وكان ثمة من يرد عليها ليقطع أملها بسلمان: "لقد رحل

سلمان. إنه لن يعود." ما كان لكل هذا أن يؤثر فيها: "كلا، إنه في بيروت. هناك حرب. الحرب سيئة، سيئة جدا. قال لي إنه سيعود. الحرب سيئة."

أكيد أنه من الصعب على المرء أن يصيب في تقدير العمر الحقيقي للأقزام، فهم يشيخون بدون أن يظهر ذلك عليهم. كانت برباره تبدو في الخامسة والعشرين إلا أنها كانت تقول أنها في الثامنة عشرة من عمرها. أما شقيقتها ايفلين فكانت تكبرها بعامين. لم تكن تتحدث كثيرا معنا، ولكننا كنا نعرف أنها تحب قزما أطول منها قليلا، يعمل مهرجا في سيرك بيرولينا الذي كان يقدم عروضه عادة في الصيف في منطقة محاطة بالأشجار في طرف المدينة. كان توميشكا أحد أكثر الأقزام جرأة وشجاعة، يمسك الأسود من ذيولها ويمتطي ظهورها أو يضع رأسه بين فكيها ثم يهرول متدحرجا فوق الأرض، مثيرا خوف الأطفال وضحكهم. كان يأتي أحيانا إلى المقهى، ربما لموعد مع صديقته ايفلين، برفقة غجري مجري يشد رأسه دائما بخرقة حمراء ويعمل سائسا للخيل في اصطبل السيرك، ثم يظلان يجرعان كأسا بعد أخرى من الفودكا الروسية، وهما يتبادلان النميمة حول العاملين معهما في السيرك، قبل أن ينهضا وينضما إلى مائدة الزبائن العرب، حيث يخرج الغجري كومة من أوراق العملة ويرمي بها فوق المنضدة، طالبا استبدالها بالدولار: "أنتم العرب تملكون الكثير من الدولارات. كل واحد منكم يملك بئرا للنفط." وإذا لم يجد صدى لعرضه قال:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

"ولكنكم تحبون النساء كثيرا. سوف أذهب وأجلب لكم أجمل الغجريات." ثم ينهض، مغادرا المقهى، يتبعه توميشكا بخطوات تشبه خطوات البط. غير أن أحدا لم يره قط مع غجرية. كان يأتي مع توميشكا ويغيب معه فلا يظهر إلا بعد أسابيع. في المرة الأخيرة التي جاء فيها إلى المقهى كان يرتدي قميصا أحمر مشجرا، مفتوح الأزرار حتى الصدر ثم اختفى، حيث لم يره أحد بعد ذلك. وروى توميشكا الذي كان حزينا لغيابه أن ايغور كان قد أفرط ذات ليلة في شرب الفودكا فرمى بنفسه في نهر شبري الذي جرفه نحو الطرف الغربي من المدينة. وما كان يعرف ان كان الغجري قد بلغ الطرف الآخر حيا أم أن النهر ابتلعه. ومع ذلك ظل يعلق خرقة سوداء على ذراعه، حدادا عليه.

في النهاية وبعد انتظار ممل للأصدقاء الغائبين أدفع حسابي وأخرج مع فرجيل إلى الشارع، سائرين تحت المطر حتى محطة القطار.

هناك ممسكا بجدي أبيض أسنده على صدري، أتقدم إلى الإله وفي يدي صولجاني الفضي وأقول بصوت يجرحه الألم مثل واعظ يلقي خطبة في معبد سومري:

كيف سأجيبهم يا صاحبي؟

أأجيبهم بأنني أخاف من خمبابا

وسأظل ملازما بيتي طوال أيام حياتي الباقية؟ *

---

* من ملحمة كلكامش

تنفرج شفتا فرجيل عن ابتسامة ساخرة ويقول لي:

– مرحى يا كلكامش، أنت تذكرني بعمة عجوز لي، كانت تتمنى أن تموت، لأنه لم يبق لها ما تفعله في هذه الدنيا، ولكن عندما جاءها الموت بالت على نفسها من الخوف.

قلت باحتقار:

– سوف أبول على الموت وليفعل ما يشاء.

ظهيرة دافئة تغري المرء باجتراح المعجزات. يمكنك أن تقصد حانة على الأقل. طيش الشباب لا يشبه طيش الشيوخ. لا تكن دوانيقيا. هذه الضجة في الشارع. هذا الطبل الذي لا نهاية لقرعه. في كل مرة أقول لنفسي: خذ معك قلما يا بني لتدون أفكارك التي تذروها الرياح. المرة تلو الأخرى أخرج لأراقب تفاحة نيوتن، تسقط من شجرتها. تفاحة فاسدة، يبيعون الكومة منها بدرهم عند مدخل شارع الشواكة. ما شاء الله يا بني، لقد نبت شاربك قبل الأوان. احلقه بالموسى حتى ينبت غزيرا. إذا جئت في المرة القادمة من العمارة فاجلب لي سمكة شبوط من الأهوار وسوف أجعلك غنيا. أعرف أنني عاثر حتما على جوهرة في جوفها. هكذا هي الأسطورة. إني أصدقها. ها هي ننسون قد دخلت حجرتها ثم عادت، مرتدية حلة تليق بجسدها البلوري، على رأسها تاجها، وفي عنقها عقد من العقيق، كنت قد اشتريته لها في الصومال من بائعة على الساحل، خارجا من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المحيط الهندي. أحرقت البخور ثم أطفأتها. عوذت وأحضرت الكاهنات والبغايا المقدسات والمتبتلات ثم قالت، معاتبة الله:

"علام أعطيت ولدي كلكامش قلبا مضطربا، لا يستقر؟"

هنالك كانت البحيرة تفور في الأغوار، وقد طفت على سطحها أوراق خضر، بحجم الكف. كنت ضائعا وكان فرجيل دليلي.

وصلنا إلى حانه القط الأسود التي علق في مدخلها قفص، تربض فيه قطة سوداء ضجرة، فاستقبلتنا صاحبة الحانة، وهي امرأة في خريف عمرها، تزين شعرها بنرجسة وترتدي بنطلون جينز مع قميص أبيض، مفتوح الصدر، بصيحة فرح:

– هذا آدم يعود ثانية.

أطلقت قبلة في الهواء ثم احتضنتها بمودة:

– لم أكن سعيدا، إذ أكون شقيا لا أجرؤ على المجيء اليك.

خصرتني صاحبة الحانة بذراعها:

– كن سعيدا دائما يا بني.

قلت، جالسا أمام مائدة في ركن، مواجها فرجيل الذي أخرج من جيبه علبة سعوط فضية، فتحها ورش بعض نثاره على ظاهر كفه ثم راح يتشممه:

– لا أستطيع أن أكون سعيدا. أمس استلمت برقية من بربارة، تقول فيها ان توميشكا قد مات. أحد أسوده التهم رأسه الصغير.

ندت عن صاحبة الحانة صرخة، كتمتها بكفها:

– القزم الذي كان يعمل في السيرك، ذاك الذي كنت تحدثني عنه.

– أجل هو بعينه. أبرقت تبلغني بموته. ثم: قل لسلمان أن يعود إلي. البلهاء تعتقد أنه يعيش معي داخل سقف واحد.

وتدخل فرجيل بينما اتجهت صاحبة الحانة نحو المقصف:

– لماذا لم تقل لي ان صديقا لك قد مات؟

قلت:

لم تكن تعرفه. ماذا يهمك من أمره؟

أجاب فرجيل:

– ان موت انسان هو حدث دائما. ليرحمه الله.

– آمين.

وضعت صاحبة الحانة أمامنا قدحين كبيرين من البيرة ثم جلست تدخن على حافة الطاولة، ملقية نظرات حنان علي. وفجأة راحت تغني، بدون أن تفارقني نظرتها الحزينة:

أما أنت يا كلكامش

فكن فرحا في كل يوم من أيامك

وارقص والعب مساء نهار

واجعل ثيابك نظيفة، زاهية

واغسل رأسك واستحم في الماء

ودلل الصغير الذي يمسك بيدك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وافرح الزوجة التي بين أحضانك

وهذا هو نصيب البشرية. *

ثمة موسيقى تعزف أغنية فلاحية قديمة. الإبرة في الاسطوانة. أيها العدم، تبا لك، أنت لا زمن لك. ماذا كان قبلي؟ ماذا سيكون بعدي؟ لا بد أن الديجور وحده كان يوشع الفراغ. كلا، لم يكن هناك ديجور وإنما مصباح دري يتدلى، قاب قوسين أو أدنى. لقد أوقعنا الله في حبائله عندما جعلنا ندب فوق الأرض مع بقية الحشرات والزواحف. هذه الكواكب التي تهدر بالمليارات. درب التبانة، بنات نعش، المجرة رقم ٣١٥٧٦٢٩٤، هذه النجوم البعيدة المغطاة بتابل الميتافيزيقيا. أحيانا أرى أنني قد لا أكون موجودا حتى إذا كنت موجودا. ذلك يجعل الأمر أكثر سهولة. يا بني، لا تكن صلبا فتكسر. تذكر دائما: Öd und leer das Meer ** يوم تموت ويوم تبعث حيا.

ارتشفت جرعة كبيرة من كأسي ومسحت الزبد الذي أحاط بطرف فمي:

– كلهم يبحثون عن السعادة. لقد بدأ ذلك قبل خمسة آلاف أو ستة آلاف عام أو ربما مع البشر الأوائل داخل كهوفهم ومغاراتهم.

إشرأب فرجيل بعنقه إلى الأمام:

---

* من ملحمة كلكامش

** منهك وفارغ هو البحر – تريستان وايزولده، القسم الأول

– هذا هو القداس الحقيقي. المباديء تعلن السعادة والثورات تبشر بها والحروب نفسها هي سندات قرض مقدمة إلى الأجيال القادمة باسم السعادة.

– اقرضنا حربا أو حربين يا صديقي على حساب الأجيال القادمة.

أشعلت سيجارة ثم التفت إلى صاحبة الحانة وقلت لها، لائما:

– كان ينبغي عليك أن تطردي كلكامش، ذلك الأحمق الأناني المأخوذ بفكرة الخلود.

احتج فرجيل غاضبا:

– أنت تشتم الرجل بدون وجه حق. لقد رأى صاحبه يموت أمام عينيه، فماذا كان يمكن أن يفعل غير ذلك؟

تدخلت صاحبة الحانة، مهدئة:

– هناك حلول أفضل اليوم. إننا متحضرون بعد كل شيء. لقد أهديته نسخة من كتاب مؤلف هولندي عن السعادة، كان قد رهنه عندي.

علق فرجيل، وهو يجرع المزيد من البيرة:

– كيف تكون سعيدا دائما؟ أعرف هذا الكتاب الرخيص. يعتقد مؤلفه أن حياة سعيدة منذ البداية تظل سعيدة حتى النهاية. ماذا نقول إذن عن الذين يقودهم سوء الطالع إلى المشنقة؟ الغبي يريد أن يفتتح مدرسة لتعليم السعادة.

– ينبغي أن نقصده يا فرجيل، فربما كان الرجل يعرف شغله.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

زعق فرجيل، بعد أن احتسى البيرة حتى الثمالة:

– ليأخذه الشيطان.

القطة السوداء تموء في قفصها. حانة نصف مظلمة. نباتات في أصص عند الباب. وفي السقف خيوط عنكبوت، خرج متنزها يصطاد الذباب. من كوة في الطرف الآخر ضوء يتسرب، ساقطا فوق أرضية الحانة. جلبت صاحبة الحانة مزيدا من البيرة وانصرفت إلى زبون، كان يتكيء بمرفقه على المقصف ويشرب من كأس في يده، وحيدا. إنه همنغواي بعينه. لا يمكن للعين أن تخطئه. ها هو ذا يروي لصاحبة الحانة مغامراته أيام كان في باريس: "في الجولة الثالثة أصبته بالضربة القاضية فتمدد وسط الحلبة بدون حراك. كان هناك أيضا ذاك الملاكم المحترف الذي اعتاد الحضور إلى الحانة، جارا وراءه أسده الذي كان يتبرز على هواه بين الموائد، بدون أن يجرؤ أحد على نهره. ذات ليلة وقد بلغ السيل الزبى نهضت وأمسكت بهزبره اللعين من معزمته وقذفت به إلى الشارع فتبعه صاحبه ولم يعد ثانية." يا له من عجوز لعين، يعرف كيف يستميل النساء. يقولون أن نصف ما يرويه عن نفسه كان مختلقا. كلهم يكذبون. الأكذوبة ملح اسطورة الأدباء. الأكذوبة تقربهم من قلوبنا وتجعلنا نتحدث عنهم في مجالسنا. الأكذوبة هي العربة التي تستقلها الحقيقة. وماذا في ذلك؟ يقول فرجيل. شاعر عربي قصد مهرجانا شعريا في باريس على ظهر بعير،

حسب العادة العربية، إلا أن شرطة المرور أوقفته في منتصف الطريق فاضطر إلى أن يستقل عربة، وهو آسف على بعيره الذي اقتادوه إلى حديقة الحيوان. لا ينبغي أن نظلم الرجل ونأخذه بجريرة بعيره. فثمة دائما بعير يقصد الأفق وصحراء تتفتح مثل وردة خفية. آه، أذكر أنني كنت خارجا في رحلة صيد عندما سمعتها تهتف باسمي. شاعر فاسق في صحراء، بوهيمي قديم.

تقول وقد مال الغبيط بنا معا

عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها سيري وأرخي زمامه

ولا تبعديني من جناك المعلل

هناك، هناك:

I have heard the mermaids
singing, each to each.
I do not think they will sing to me. *

ماذا كان يمكن لكلكامش أن يفعل سوى البحث عن تلك النبتة الغريبة التي تنمو بين الصخور في جبال لبنان؟ يا للعنة، لقد سرقتها الحية! لماذا الحيّة دائماً؟ هذا يبدو كثيرا.

---

* سمعت الحوريات
يغنين لبعضهن.
لا أعتقد أنهن سيغنين لي.

T. S : Eliot : The Love Song of J . Alfred Prufrock

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال فرجيل:

– إنها حية في مسرحية يا عزيزي.

– هل كان الأمر مدبرا منذ البداية؟

– لا شك في ذلك. لقد ابتلعت حواء الطعم مثل أي امرأة أخرى.

– إلهي لا تدخلني في التجربة.

– آمين.

كان الرجل الذي يشبه همنغواي يرتدي سراويل كاكية، شد فوقها حزاما عريضا مطرزا بحروف ألمانية * Gott mit uns وقميصا أبيض متهدلا وخفين من جلد التمساح بدون جوارب. أطلق ضحكة مرعدة وهو يطلب كأسا أخرى من شراب بابادوبل الذي كان يتكون من جرعتين ونصف من روم وايت ليبل باركادي وعصير ليمونتين ونصف كرمة وست قطرات من الماراسكينو. قال فرجيل:

– إنه هو بالتأكيد.

قلت بعدم اكتراث:

– ربما.

– هل أدعوه إلى طاولتنا؟ ربما سره أن يتعرف عليك.

جاءت صاحبة الحانة تحمل قدحين من البيرة، وضعتهما أمامنا، بعد أن غادر الرجل الذي يشبه همنغواي الحانة، طابعا قبلة على خدها،

---

* الله معنا

برفقة شاب، كان قد جاء ووقف أمام الباب مناديا: ماري تنتظرك في السيارة يا بابا.

فرد: حسنا يا نيك آدامز، أنا جاهز. اللعنة.

قالت صاحبة الحانة:

– جميع الذين أعرفهم يعودون إلى دائما. تلك نعمة ينبغي أن أشكر الله عليها.

خطوة أخرى ثم يبدأ المجال المغناطيسي، حيث عاطفة مشتعلة مثل غابة، أصابها البرق. إنه الليل وأضواج الوادي. كانت قد جاءت إلي مساء وانتظرتني تحت قنطرة قطار المدينة في ضاحية البحيرات تحت رذاذ المطر الخفيف، فاتحة مظلتها فوق رأسها. قصدنا المدينة. في المرقص الليلي تشاجرت مع جنود روس سكارى طلبوا منها أن تتركني وتذهب معهم. لكنها صدتهم بإباء. كانت غارقة في حبي حتى الأذنين. حب تحت – بحري، لا يكاد المرء يشعر به إلا عندما ينحدر إلى الأعماق. كانت تتحدث دائما عن أجنحة الصقور. بها يحلق المرء نحو مملكة حبها، متهمة اياي بأنني أملك أجنحة بط. المستنقعات الفسيحة والسماء العالية. كان ثمة ما هو محايد في قلبي، ملطخ بسناج تاريخي الخاص. ثملين عدنا في قطار الليل الأخير. قبل المحطة الأخيرة جرتني من يدي إلى الرصيف. كان المطر قد توقف فانحدرنا إلى الغابة التي كانت أوراقها تطقطق تحت أرجلنا، مصابين بالحمى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عاد كلكامش متربا، مصفر الوجه وجلس على المقصف، كان يبكي:

– ها أنذا أعود خالي الوفاض، لا خلود ولا هم يحزنون.

قالت صاحبة الحانة، مؤنبة وهي تقدم له قدح كونياك:

– لقد نصحتك فلم تنتصح. كنت راكبا رأسك.

جرع كلكامش كأسه:

– الحياة اليومية مرة أخرى. أن تأكل وتنام وتنتظر موتك، كما يفعل الجميع. يحسن بي أن أعود إلى البيت. لا بد أن أمي ننسون تنتظرني. كلما تأخرت تظل ملتصقة بالنافذة، تحدق في الشارع، متوقعة أوبتي.

قالت صاحبة الحانة:

– هكذا هن الأمهات.

رمى كلكامش كومة من النقود فوق المقصف وخرج.

كان لا بد لي أن أذهب لأودع صديقي الصغير، برفقة فرجيل الذي قال إنه سوف يعرف كيف يخفي نفسه عن الأنظار، فقد رفضت أن يحضر جنازة شخص لم يلتقه في حياته.

طيلة يوم كامل ظل رفاق توميشكا في السيرك يتنقلون ما بين مكاتب الدفن الأنيقة الكثيرة الموجودة في برلين، دون أن يعثروا على نعش يناسب حجمه. كل النعوش الجاهزة كانت للكبار. وأخيرا وافق

نجار في فرانكفورترأليه على صنع نعش حسب القياس. في يوم الوداع الأخير قبل نقله الى المحرقة التي كانت تقع على طرف المقبرة، ملتصقة بقاعة الخطابة، جاءت به سيارة سوداء لنقل الموتى، حيث وضع النعش فوق منضدة في صدر القاعة أمام خشبة المسرح. عندما مررنا به واضعين زهورنا فوق صدره شعرت أنه يحدق بي شاكرا، على عادته. كانوا قد أخرجوه من ثلاجة حفظ الجثث وثبتوا رأسه أو ما تبقى منه بجسده بشريط لاصق، في حين قام عامل مكياج بترتيش وجهه لإخفاء الجروح والندوب حتى بدا أنه يبتسم.

مرت أولا ايفلين التي كانت تغطي وجهها بوشاح أسود، متكئة على ذراع أختها بربارة، ثم مهرجو السيرك ولاعبوه، يتبعهم أكثر من عشرين قزما وقزمة، قدموا من المدن الأخرى.وفجأة ظهر صديقه الغجري ايغور. كان يشد رأسه بخرقة سوداء هذه المرة. جاء ووقف لصقي:

– كيف يمكن أن يحدث هذا لتوميشكا؟

ثم أشعل سيجارة، وهو أمر ما كان يمكن لأحد غيره أن يفعله. لم يدم حفل التوديع طويلا، فقد وقفت ايفلين على خشبة المسرح وعلى وجهها برقعها الأسود حيث ألقت كلمة وداعية جعلت عيوننا تغص بالدموع. ثم ظهر من وراء المسرح الملك الشاكسبيري ماكبث الذي كان توميشكا المهرج الأول في قصره طيلة سنوات قبل أن ينتقل إلى العمل في السيرك. لقد أحب ماكبث توميشكا، كما لم يحب اي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مهرج آخر، وإن ظل حانقا عليه لمغادرته حاشيته. وقف وألقى بصوت يكاد يكون ترتيلا قصيدته التي كنا نحفظها جميعا عن ظهر قلب:

غدا، وغدا، وغدا
وكل غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة يوما إثر يوم،
حتى المقطع الأخير من الزمن المكتوب،
وكل آماسنا قد أنارت للحمقى
الطريق إلى الموت والتراب.
ألا انطفئي، انطفئي أيتها الشمعة الضئيلة!
ما الحياة سوى ظل، ممثل مسكين
يختال ويتألم ساعته على المسرح
ثم لا يعود يسمعه أحد. إنها حكاية
يرويها معتوه، مليئة بالضوضاء والهياج
ولا تعني شيئا. *

غصت عينا ماكبث بالدموع فخرج حتى بدون أن يلتفت إلينا، تتبعه حاشيته من الأمراء والفرسان. عندما حملوا توميشكا إلى المحرقة ظل في المدخل ساعة اوبعض الساعة قبل أن يقذف به داخل الفرن،

---

* وليام شكسبير: ماكبث – الفصل الخامس، المشهد الخامس

فقد كان ثمة أربعة موتى آخرين قبله، يصطفون على المنضدة الطويلة. فكرت أن رماده سوف يختلط بالتأكيد برماد الآخرين. كان الأقزام القادمون من المدن الأخرى قدصافحوا ايفلين التي كانوا ينادونها تحببا بايفي وانصرفوا ولم يبق من زمرة السيرك سوى المهرج الأول والغجري وفتاة نحيفة كانت تقدم ألعابا بهلوانية مثيرة على الحبل عندما جاء عامل المحرقة وسلم ايفلين زجاجة مليئة بالرماد، ألصقت عليها ورقة بيضاء صغيرة، سجل فوقها اسم توميشكا وتاريخ ميلاده وموته. ألقينا نظرة على الزجاجة الشفافة الزرقاء التي كانت ممتلئة حتى العنق بالرماد قبل أن تدسها ايفلين في حقيبتها اليدوية، قائلة: "والآن يجب أن نذهب لنشرب نخبه". سارت ايفلين في المقدمة مع المهرج ووراءها سارت بربارة مع سائس الخيل الغجري. أما أنا فقد سرت على بعد أمتار منهم مع لاعبة الحبل التي روت لي طرفا من حياتها ونحن نقطع الطريق المشجرة التي تربط المقبرة بالبار. كانت بولندية الأصل من منطقة بحيرات مزوريا، ولدت وكبرت داخل سيرك متنقل، كان يقدم عروضه في القرى والمدن الصغيرة قبل أن تقرر الرحيل إلى ايطاليا عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها. عملت في البداية هنا وهناك قبل أن تنضم إلى سيرك بيرولينا الذي قالت أنه أصبح عائلتها. في البار وضعت ايفلين زجاجة الرماد على المائدة أمامنا ثم رفعنا أنخاب النبيذ في ذكرى توميشكا الذي قالت عنه ايفلين، مجهشة بالبكاء انه سوف يبقى بيننا إلى الأبد. كان توميشكا هناك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

داخل زجاجته. ما كان في امكاني وأنا أصب في جوفي نخبه أن أحول عيني عن زجاجة الرماد الذي كان هو كل ما تبقى منه. كانت لاعبة الحبل، ليليان تجلس لصقي فمدت يدها الصغيرة ووضعتها في يدي ثم التفتت إلي بوجهها الشاحب وعينيها الملتمعتين، قائلة: لقد كنا نحبه جميعا. ابتسمت ولم أعرف ما أقول. وبدا المهرج ساهما بعض الشيء، يدخن بدون انقطاع. قال: لقد حذرته كثيرا من لعبته مع الأسود غير أنه كان شجاعا، يهزأ بالموت نفسه. ولكن الموت هزم المهرج في النهاية. يا لنا من مهرجين بؤساء! وتحدثت بربارة عن سلمان الغائب وسط الحرب في بيروت: "كان ينبغي أن يكون معنا الآن. آه، لكم كان يحب توميشكا." ضغطت على يد ليليان بأصابعي فأبقتها لي، بدون أن تحاول سحبها. وثمل الغجري الذي ظل يجرع الكأس بعد الأخرى ثم راح يردد مع نفسه أغنية غجرية:

الموت مقبل.

لا تتركني أيها الله أموت.

الموت أمام الباب. أختبىء تحت السرير.

أيها الله لا تتركني أموت هكذا شابا!

الموت عند العتبة.

رغبات غير متحققة. موت أسود. ليلة بيضاء.

الموت وحده أسود. أيها الله لا تتركني أموت

ما لم تتحقق رغباتي كلها . *

ما كادت الأغنية تنتهي حتى نهض واختطف قنينة الرماد، واضعا اياها فوق رأسه، ممسكا بيد المهرج الذي لم يجد بدا من النهوض، حيث راحا يطوفان حول المائدة، مؤديين رقصة الموتى الغجرية. صرخت ايفلين وقد تملكها الغضب: ماذا تفعل أيها المعتوه؟ يا إلهي، سوف تكسر الزجاجة ويتناثر الرماد. وهرع الندل الذين كانوا يراقبون المشهد من بعيد وأمسكوا بالغجري والمهرج: "هيا اجلسا أو غادرا البار. ما هكذا يودع الناس موتاهم!" بدا المشهد محرجا. عندما استعادت ايفلين الزجاجة تنفست الصعداء، فدستها للحيطة في حقيبتها التي ظلت ممسكة بها، كما لو أنها تخاف من أن يختطفها الغجري ثانية. عندما ذهب الجميع ظلت ليليان معي. سرنا طويلا تحت المطر قبل أن يقودنا الليل إلى غرفتي المظلمة. في اليوم التالي عندما ذهبنا أنا وليليان إلى المقهى رأينا ايفلين قد أسندت صورة توميشكا على الجدار، مجللة بالسواد وأمامها على المائدة قنينة الرماد وثلاث زهور حمر، في مواجهة باب مبولة الرجال.

عائدا إلى نفسي قلت لفرجيل:

– لا فائدة، ينبغي أن أذهب للجريدة. لا بد أنهم ينتظرونني الآن.

– لقد أفرطت أنا الآخر في الشرب. سوف أمر عليك ثانية. لا

---

* أغنية غجرية أوروبية، ترجمت عن الألمانية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تنس دليلك أبدا يا آدم.

دفعنا حسابنا وغادرنا الحانة إلى الشمس الساطعة في الشارع. سار فرجيل باتجاه الجسر الذي كان سيقوده إلى الضفة الأخرى الغارقة في الضباب والظلام. أما أنا فقد دسست نفسي في حافلة بين ركاب آخرين، شاعرا بالاختناق وسط رائحة الأجساد النتنة والأصوات المزمجرة.

أسمع صرير الباب ينفتح. أسمع هسيس الأشجار تعصف بها الريح في الحديقة. أحد ما يدخل الغرفة ويقترب مني. أفكر انها الممرضة الشابة كاترين باركلي التي كانت تضمد الجنود الجرحى في مستشفى الجبهة في رواية "وداعا للأسلحة". لو لم أكن أموت هكذا لخرجت معها مثل هنري الى الحديقة.

– أجل، أنت طيب جدا، ولسوف تأتي لزيارتي ثانية، أليس كذلك؟

– طبعا.

– وأنت لا تحتاج حقا ان تقول لي انك تحبني. سوف ينتهي كل ذلك بعد برهة.

أسمعها تحدث نفسها. هذه ليست كاترين باركلي بالتأكيد. انها نادجا بريتون، تلك المجنونة التي حدثتني كيف أنها أمضت ليلة كاملة برفقة آثاري داخل غابة فونتانبلو، باحثين عن بعض الأحجار التي كان

ثمة وقت كثير في النهار لإكتشافها، اذا كانت الأحجار بالفعل هي هوى ذلك الرجل. أسمعها تقترب مني وتهمس في أذني:

– هل تسمعني؟

أعجز عن أن أفتح عيني. أجاهد أن أحرك رأسي على الأقل. أظل جثة، لا حراك فيها. يا إلهي، لماذا لا تنفتح يدي. لماذا يظل فمي مغلقا؟ ما من كلمة تخرج من تحت لساني الخشبي. أهذا هو الموت؟ يا له من أمر فكاهي حقا!

أراها تنحني فوقي وتطبع قبلة فوق فمي:

– لا بأس سوف أدفيء لك جسدك البارد. أعرف أنك كنت تشتهيني دائما. هيا قل لي ذلك ولا تخجل!

تدس نفسها عارية جنبي داخل سريري تحت البطانية. تفتح أزرار قميصي وتلصق جسدها بجسدي. نشوة غامرة تضرب أصقاع روحي. أريد أن أتشبث بها، ولكن يدي تخوناننني. يدان ميتتان تثيران حنقي وحقدي. أحس بأصابعها تكتشف جسدي قطعة قطعة وفمها يسرح فوق صدري.

أقول لها "شكرا"، لكنني لا أسمع صوتي.

تقول لي مداعبة:

– لا تيأس، سوف أعيدك الى الحياة ثانية يا آدم. سوف أجعلك تأكل من كل فواكهي المحرمة.

أشم رائحة جسدها المدوخة المختلطة بالموت وأتذكر صرخة مرعبة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تشبه سؤالا: "من هناك؟ هل أنت نادجا؟ هل صحيح أن الآخرة، كل الآخرة توجد في هذا الوجود؟ لا أسمعك. من هناك؟ هل أنا وحيد؟ هل أنا نفسي؟"*

ساقطا في الموت والنعاس أسمع ضجة عند الباب. أحد ما يشتم بصوت مرتفع. ثمة أيد تمسك بنادجا وتجرها، مسقطة اياها أرضا. انه الطبيب:

– انت ايتها المجنونة الا يمكن ان تتركي الموتى يموتون بسلام؟

أسمع الممرضة تقول:

– يا الهي، انها تضاجع رجلا يحتضر. لا بد انها قتلته.

أريد أن أرد عليها، لكن لساني يخونني. أسمع نادجا تنتحب:

– لقد أردت أن أدخل السرور الى قلبه وأن أبعد شبح الموت عنه.

ينغلق الباب ثانية فأسقط بين النوم واليقظة.

امام مبنى المجلة أجد فرجيل واقفا ينتظرني، متحدثا إلى الفراش جمعة الذي يقول حالما يراني:

– ها هو الأستاذ قد جاء.

أقول مستغربا:

– يا إلهي ماذا تفعل هنا يا فرجيل؟ لقد تركتك قبل دقائق فقط. كيف وصلت قبلي؟

يجيب فرجيل، متلعثما:

---

* أندريه بريتون: نادجا

– لم أرد أن أتركك وحدك في هذه المتاهة. لقد وعدت أن أكون دليلك.

أقول ضاحكا:

– أنت مجنون يا فرجيل. هناك عمل كثير ينتظرني هنا.

يقول:

– لا بأس، سوف أنتظرك هنا أمام الباب حتى تنتهي.

ربما كان فرجيل على حق. هذه مدينة مرمية في أقصى الروح، تخترقها الذكريات والأحلام مثل عواصف هوج. مدينة سوداء عبثت بها يد الله أو الشيطان فحولتها إلى متاهة أسطورية. ميناتور من شحم ولحم يربض أمام نفق. ماذا تفعل داخل هذه المغارة يا آدم؟ انني أنظر إلى حياتي بمنظار مقرب، رائيا الكون برمته (الزمان والمكان) متضمنا ومطويا في كل جزء منها، ومنبسطا إذ تنظره العين.

– ماذا يحدث هنا، يا فرجيل، إذ لا زمان ولا مكان؟

يجيب وهو يضع غليونه في طرف فمه:

– هنا يكون الكل راهنا دائما. لحظة أقصر من عشر الثانية وأطول من قرن. في كل لحظة أنت في الأبدية. هذه بغداد التي تموت في كل لحظة ثم تستمر مجددا.

أية أبدية يا فرجيل؟ المهم أن يزداد الرجال سمنة والنساء نحافة. دعنا من القيل والقال إذ ما دمت تدخن الغليون سوف أعطيك تبغا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هولنديا جيدا، ماركة بانتام. خذه إذا أردت. ليس غاليا. في السوق الحرة اشتريته بأقل من دولارين. أكره رائحة الغليون. الغليون يذكرني بالامبريالية. خذ سيجارة يا رجل والعن الشيطان!

في مكتبي تجلس شهرزاد تنتظرني ماضغة اللبان. كانت قد نزعت عباءتها وكومتها على المقعد جنبها وانزلق طرف ثوبها عند عنقها فبدت كتفها. قالت:

– لقد لجأت إليك. لم أجد أحدا غيرك يمكن أن يساعدني. اكتشف شهريار ما أفعله في النهار فجن جنونه. إنه يبحث عني الآن. سوف يقتلني بالتأكيد.

قلت بدون أن يفارقني الشعور بالإحراج الذي كان يسببه وجودها معي في مكتبي:

– ولكن ماذا يمكن أن أفعل من أجلك؟

– دعني أبق فترة من الزمن عندك في الشقة حتى أتدبر أموري. أنت أيضا تحتاج إلى امرأة مثلي. سوف أروي لك كل ليلة قصصا أجمل حتى من تلك التي كنت أرويها لشهريار. أنت تفهمني على الأقل أما هو فكان يضع السيف إلى يمينه، مهددا بقطع رأسي في أي وقت يشاء.

انتابتني نوبة من القرف:

– لا يمكن ذلك، لست مسؤولا عنك، لا أريد أن تقتلي في

شقتي. إن شهريار لن يتوانى عن قتلي أنا الآخر إذا ما عرف أنك مختبئة عندي.

نظرت إلي متوسلة:

– ربما أراد صديقك الأصلع أن أذهب إليه.

قلت متأففا:

– ان فرجيل لا يطيق النساء.

أذكر المرة الأولى التي جاءت فيها إلي. دخلت الغرفة وتعرت من ملابسها قطعة، قطعة. نزعت ثوبها الرمادي أولا. لم تكن ترتدي تحته سوى سروال أحمر قصير. جرت كتابا من الرف واستلقت على ظهرها فوق السرير. كانت فتاة نضرة، ذات وجه شاحب، تأتي في الأغلب برفقة أختها الصغيرة الخجول دنيازاد التي كانت تظل جالسة في الصالة، منتظرة خروجها من غرفة النوم. في أول مرة نمت فيها معها نظرت في عيني بانكسار وأنا أضمها إلى صدري وقالت بحزن: «أيها الرجال، لماذا أنتم هكذا؟» عندما اقتربت من فردوسها أجهشت بالبكاء وهي تتشبث بي بأظافرها. ثم أغمي عليها. كانت تلك هي المرة الثالثة أو الرابعة التي تذوق فيها هذه الفاكهة السحرية، كما قالت لي. ثم رأيتها عصرا، تسير وراء أمها عند سياج حديقة الأمة، لابسة عباءتها كالعادة. أدرت وجهي حتى لا أحرجها، غير أنها ابتسمت لي وخفضت رأسها مثل أي فتاة عاقلة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في النهاية لم أجد بدا من أن أضع مفتاح الشقة في يدها:

– حسنا، يمكنك أن تبقي يومين أو ثلاثة عندي. ولكن لا تدعي أحدا يراك. عندي ما يكفي من المشاكل.

شكرتني وانصرفت.

أسمع جرس الهاتف يرن. يهوذا الآسخريوطي على الخط:

– إسمع يا آدم. هل يمكن أن تترك عملك في المجلة؟ أريد أن أراك الآن.

– ماذا حدث؟

– ربما استطعنا أن نفعل شيئا لإنقاذه.

– ننقذ من؟ لا أكاد أفهم شيئا.

– لقد رأيتهم يقتادونه إلى بحيرة التماسيح. سوف يمزق إربا، إربا.

– يقتادون من؟

– كان يشبه المسيح. أعتقد أنه هو نفسه.

– أنت تخرف يا رجل. المسيح لم تأكله التماسيح. لقد قبلته أنت نفسك قبل أن يقتادوه ليصلب بين لصين.

– هذا ما يزعمه الأوغاد عني. لقد اتصلت بك حتى لا تظل تعيرني بدمه ثانية. ربما استطعنا أن ننقذه هذه المرة.

– إسمع يا يهوذا، أنت وحدك تستطيع إنقاذه. إذهب وقل لهم إنه ليس هو ولسوف يطلقون سراحه. لماذا تريد أن تورطني في قضية

رفض الله نفسه أن يورط نفسه فيها؟ كان في إمكانه إنقاذه، ولكنه لم يفعل. أليس كذلك؟

– ربما كانت له أسبابه. ولكن لا عذر لك إذا تخليت عنه الآن.

– ما علاقتي بالأمر؟ إنني لا أكاد أعرفه.

– هذا ما يردده الجميع. إنني أنتظرك في شارع البحيرة.

لم يترك لي يهوذا أي فرصة للاعتذار بعد أن أغلق الهاتف.

إنني غارق في العمل إلى أذني. فقد تأخرت كثيرا في الكتابة عن رحلتي إلى أفريقيا التي كنت قد أمضيت فيها شهرا كاملا، تائها داخل الغابات والأحراش، إذ قال لي رئيس التحرير من وراء نظارته التي يجعلها تنزلق فوق أنفه عادة:

– منذ أسبوع ونحن ننتظر موضوعك. هل تعتقد أننا أرسلناك إلى هناك للنزهة؟

ماذا كان يفعل الفهد فوق ثلوج كليمنجارو؟ أكان يبحث عن الموت أم عن الحياة؟ سوف أسأل ذلك الأميركي المغامر في المرة القادمة إذا التقيته في الحانة. ماذا يفعل يسوع في بغداد؟ أعرف أنه كان قد خرج من البيت وجلس عند البحر، ضاربا الأمثال. ها هو ذا الزارع قد خرج ليزرع، لأن قلب هذا الشعب قد غلظ. اجتازت الطائرة مناطق الخضرة والغابات. طيور ملونة تحلق فوق البوادي التي حولها الجفاف إلى رماد وقطعان ماعز بري تعدو نحو التلال. صحارى رملية تلتمع تحت أشعة تخترق الجلد. عظام وهياكل وجماجم حيوانات متناثرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدون انتظام. ما من إشارة تدل على الحياة سوى بقايا أكواخ افريقية مهدمة ومهجورة أو متروكة للرياح الأربع. قال لي يسوع، وفي صوته آثار زكام: ابن الإنسان سوف يسلم الى أيدي الناس فيقتلونه. أيها المعلم، ماذا أفعل حتى أستحق الأبدية؟ لا شيء يا بني، لا شيء على الإطلاق.

أبلغنا قبطان الطائرة اننا سنهبط عما قليل. ها نحن نسافر الى الجحيم بينما الناس تهرب منه. في أي قارة كنا؟ في أي مدينة؟ هذه ليست أفريقيا بالتأكيد. إنها أوروبا كالعادة ها هنا خسر نابليون المعركة. ألوف الجنود قتلوا في هذا المكان الذي أقف عليه. ولكن الناس نسوا مع الزمن أن حربا هائلة، نشبت هنا. فقد استبدلت الحرب بالحب الذي يتبادل علنا على السفوح فيما يتزلج الشبان والأطفال على جليد البحيرة التي تقع أسفل النصب التذكاري. جبل قاف، جبل قاف، جبل قاف.

كنت غالبا ما أعود من هناك إلى بيتي، مشيا على الأقدام، حيث يتوجب علي أن أسير بمحاذاة المقبرة أو أن أخترقها. وكنت أفضل أن أتنزه في هذه المقبرة المليئة بالأشجار والورود والمقاعد وأن أجلس قبالة المحرقة التي ما كان دخانها لينقطع أبدا. من الدخان كنت أعرف أن ثمة أناسا لا أعرفهم يموتون في هذه المدينة دائما. مع الزمن اعتدت رائحة الدخان البشري. لم يكن يبقى من الذين يوضعون داخل هذه المحرقة سوى قنان من الرماد. هل يهم ذلك؟ على قبور قناني الرماد

كنت أرى الزهور التي تقوم النساء بسقيها بالماء من قوارير، يحملنها معهن. وعلى الشواهد أقرأ نبذة عن حياة هؤلاء الذين رحلوا فأقول لنفسي: ما من أحد هنا يموت قبل السبعين من عمره. ولكن الجنود الذين ماتوا في حروب نابليون كانوا في مقتبل حياتهم.

ها هي ذي مدينة بغداد. كوكب مزدحم بالأسرار. ضباب يلتمع بلون فضي، ملطخ بالزرقة. هذا الهدير المحموم في الجو وذلك الامتداد البدائي والنداء الغامض الذي أسمعه دائما مثل طنين في الأذن. أهبط إلى الشارع، متجها إلى بحيرة التماسيح. ألمح فرجيل يلهث ورائي. هذا هو شارع مواكب الكهنة، شارع هائل بثمانية خطوط للسيارات، أربعة في كل اتجاه، تتناثر الأكواخ المرصعة بالمطال على جانبيه. وفي النهاية تطل محطات تعبئة الوقود التي تقف أمامها عاملات أعرابيات، يرتدين السراويل القصيرة، ودكاكين تبديل العملة والمطاعم الرخيصة التي تبيع الشاورمة فيأكلها الزبائن واقفين. ووراء ذلك أرى الغابات المتعفنة والعشب المصفر والأشجار الميتة. وأمر بعمارات عالية من الخرسانة والزجاج الملون. المنحدر الذي يجعل القلب يخفق والدم يتدفق إلى الرأس. الحي العصري الفارغ. هذا هو المسجد الذي صلى فيه عمر ذات يوم وتلك هي الكنيسة التي أقامها بطرس. ما زال ثمة مؤمنون في العالم. هذا يبشر بالخير يا بني. الايمان أولا وبعد ذلك يمكنك الحديث عن أرسطو. الأحراش مرة أخرى. كانت بائعة تعاني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من الملل قد همست في أذني: يقولون أن ملك الزمان مريض بالقلب والكبد والرئتين، وربما كان مصابا بالديزانتيريا والسفلس والملاريا والايدز وسرطان الجلد والقرحة، لكنه يأبى أن يموت. إذا مات ملك الزمان سوف تموت مدينة جبل قاف أيضا. ففي ذات يوم، ربما قبل ألف عام ولد ملك الزمان هنا، داخل قبيلته فبنى هذه المدينة حتى تتذكره الأجيال القادمة. هل رأيت القبر الذي أعده لنفسه؟ تحفة معمارية. إنه يجربه ثلاث مرات كل يوم. ما ينقصه هو الموت. يا إلهي، لماذا لا يموت هؤلاء الناس المثقلون بالأورام؟ في الحروب يموت الناس شبانا، ولكن تلك قصة أخرى، تقوم على قانون الاحتمالات. الموتى يدفنون موتاهم، وهذا هوكل ما في الأمر.

اللعنة يا يهوذا الاسخريوطي. لقد ورطتني في قضية لا ناقة لي فيها ولا جمل. ما همني من هذا المسيح الذي يريدون رميه للتماسيح؟ هل أنا الله لأنقذه؟ حسنا، سأبذل ما في وسعي. سألعنهم بلساني إذا اقتضى الأمر. وهذا أضعف الايمان. كنت في الطريق ووراءي فرجيل يغذ السير مثل حصان.

بعيدا في أعماق الغابات الإستوائية وجدت نفسي أتجول بين قرى من الأكواخ الدائرية ووراءي فرجيل، مرتديا ملابس ساحر أفريقي. كان ثمة أطفال عراة ونساء يغطين أنفسهن بخرق من القماش ورجال منهكون يتطلعون إلينا خفية. كنا قادمين من كوكب آخر. أما هم

فكانوا يبحثون عن غابة مثمرة. مواكب بشرية مقبلة من كل فج عميق. كان ذلك أشبه ما يكون بمواكب الموتى التي وصفها دانتي في الطريق إلى الجحيم. هذه الأجساد السود البارقة في الشمس لم تتح لها حتى فرصة المرور بالمطهر. كانت قادمة من الجحيم إلى الجحيم.

كنت أنا أيضا في الجحيم.

هناك قال ملحد مارس كل الموبقات في حياته، وهو مقيد بالسلاسل والأغلال، لملاك كان يعمل شرطيا عند الله ويهز عصاه بيده:

– عندما أقضي عقوبتي في الجحيم وأذهب إلى الجنة سوف أبحث عنك في كل مكان لأحطم رأسك الفارغ أيها الوغد..

تلقى الملحد ركلة أطاحت به أرضا وجاء المأمور، وهو ملاك برتبة رئيس عرفاء، وصفعه شاتما:

– أنت تهددنا يا ابن الكلب. سوف أقطع لسانك الأخرق وألصقه بمؤخرتك. خذوه ثم الجحيم صلوه.

سرب من الطيور ينحدر نحو الغابة. أفكر أن الحياة أعمق بكثير من الموت الذي يظل أخرس حتى النهاية. نشيد في مواجهة عويل غامض. ها هي الطبول تقرع والسحرة يعودون راقصين. الطائرة تحلق بنا مرة أخرى، عاليا، عاليا، الأطفال الذين تلتمع جلودهم تحت أشعة الشمس الغاربة حتى لكأنها مرايا سود متحركة، يلوحون لنا بأيديهم الصغيرة. الغرباء يعودون، تاركين وراءهم الضحايا. من كوة في الطائرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يطالعنا قوس قزح بعيد.

ها أنذا في مدينة تختنق بأوكسيد الجثث المتفسخة التي ترمى في الشوارع ليلا فيلتقطها عمال نقل النفايات صباحا وينقلونها إلى المزبلة. الوثنية ما زالت حية حتى اليوم، ها هنا توجد الغابة المقدسة، حيث تلتهم القبائل القرابين البشرية التي غالبا ما تفطس من الخوف في طريقها إلى المذبح. الخنازير كذلك أيضا، إذ ما تكاد تشم رائحة الدم، وهي محشورة داخل شاحنات مغلقة، مقتربة من المجزرة حتى تنفق من الذعر الذي يدفعها إلى الهياج والبكاء. ولذلك فإنها تخدر دائما قبل اقتيادها إلى القتل. كان أبي قصابا يدعى وليام الثاني. تعلمت منه الكثير. لا أنكر ذلك. هذه مدينة تمر بها الشوارع المشجرة والأوتوستيرادات وفي أحيائها تحل الفصول الأربعة دفعة واحدة. فوق العمارات يمكن للمرء أن يرى أجهزة المراقبة التي يقف وراءها جواسيس من كل صنف ولون. ثمة عيون راصدة حتى داخل غرف النوم وفي حمامات البخار التركية التي تديرها عصابات مهربي الحشيش والأفيون. أنفاق تحت الأرض وجدران أشبه ما تكون بجدران المراحيض الداخلية: شتائم ومدائح، مواعيد غرامية، أرقام تليفونات، قصائد ورسوم وعناوين للتعارف بجميع اللغات. الشوارع مكتظة دائما والمقاهي تظل مفتوحة على مدار الساعة. أضوية النيون الباهرة ومتاجر الجنس والعاهرات المتكئات على الأشجار أو الأعمدة والمتسولون والمهرجون الذين يحتلون الأرصفة ورجال الشرطة الذين

يقفون أمام سيارات الأعتقال المشبكة ويتحدثون دائما بأجهزة اللاسلكي، واضعين أيديهم على مسدساتهم المتدلية من أحزمتهم.

لاهثا أصل إلى شارع البحيرة: لا أحد هناك. لا بد أنني وصلت متأخرا. لا بد أن ذلك حدث في زمن آخر. فالبحيرة التي كنت أتطلع إليها كل صباح من النافذة اختفت الآن وراء مخازن للحبوب وورشات لتصليح السيارات. وبدل الطرقات والمروج المعشبة انتشرت خطوط سكك الحديد وتكومت علي ضفاف البحيرة النفايات. ما من أثر لبيوت المرمر الملتمعة تحت أشعة الشمس. لا شيء سوى الحطام. كل شيء يبدو مهجورا. الشقق فارغة والمرائب تفوح برائحة العفن والمخازن تخلت عن واجهاتها الزجاجية. لا شيء يتحرك هنا. التماسيح تبدو نائمة ومتحجرة، بأفواه مفتوحة مثل فجوات في الصخر. حتى قصر ملك الزمان الذي يقع وراء بحيرة التماسيح كان مطفأ الأضواء. أما الثكنة التي علقت فوق مدخلها لافتة حمراء طويلة بحروف ذهبية فقد كانت محاطة كالعادة بالجنود والدبابات وبطاريات صواريخ أرض – أرض وأرض – جو، ولكن الجنود بدوا لي موتى أو ربما كانوا نائمين. هذا اللعين يهوذا الأسخريوطي، أتراه قد كذب علي؟ لقد كنت أقول دائما: لا تثق بخائن حتى إذا كان كلامه من عسل. أعود أدراجي إلى المدينة في المساء، يتبعني فرجيل من بعيد. لم يعد من المفيد الذهاب إلى المجلة. غدا صباحا سوف أكتب مقالتي المتأخرة، وليذهب رئيس التحرير إلى الجحيم!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في المقهى ينتظرني الأصدقاء. ألقي نظرة سريعة على نفسي في زجاج واجهة مخزن وأعدل ربطة عنقي الحمراء القديمة ثم أفرق شعر رأسي بأصابعي بدون أن تفارق السيجارة فمي، قبل أن أجتاز عتبة المقهى. هناك أرى الدكتور جيكل يحاول عبثا أن يهدىء من روع المستر هايد الذي كان يصرخ عاليا:

– لا بد لي من أن أنتقم منهم. لا يمكن أن أسمح بوقوع مثل هذه المظالم.

قال الدكتور جيكل:

– لقد انتهى الأمر. يمكنك أن تسأل يهوذا لتتأكد من ذلك.

التفت المستر هايد إلى يهوذا، ممتعضا وقال له:

– لقد كنت صاحبه، الا أنك خنته، أليس كذلك؟

هز يهوذا رأسه:

– ها أنت الآخر تردد الاشاعات التي تسمعها.

وإذ رآني أقف أمامه قال:

– هيا يا آدم، قل له إنني اتصلت بك لتنقذه.

قال المستر هايد، باحتقار:

– كان ينبغي أن تتصل بي. ما من أحد كان يمكن أن ينقذه سواي.

قلت ممازحا:

– هناك حروب كثيرة أخرى. سوف نحتاجك بالتأكيد.

علق الدكتور جيكل، موافقا:

– هذا ما كنت أقوله له، ولكنه لا يريد أن ينصت إلي.

وتدخل الأمير الصغير الذي كان يحتسي الشاي:

– دعونا من الأسف على الماضي. فكروا في المستقبل.

رفع المستر هايد رأسه إلي وقال بمودة:

– تعال اجلس يا بني ودعنا نضع الخطط لنقاتل غيلان العالم.

قلت:

– إنني لا أطلب سوى النجاة بجلدي.

قال المستر هايد مستنكرا:

– كلا، كلا، لا يليق بك أن تقول ذلك. سوف آخذك معي لأعلمك الفتك بالأعداء.

جلست مرددا مع نفسي:

في زمن قديم جدا

غرس الناس أشجار سرو

تفتقت غصونها

وامتدت عبر الضباب

كان الوقت ربيعا. *

في هذه اللحظة وصل فرجيل ووجه إلى نظرات شزرة:

---

* من قصيدة قديمة لشاعر ياباني مجهول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– كان ينبغي لك أن تنتظرني على الأقل.

ثم جلس ماسحا العرق من جبينه. قلت:

– لا بأس. ليس الجحيم سوى مدينة مثل أي مدينة أخرى. لن أضيع بالتأكيد.

المقهى مزدحم برواد يلعبون النرد والدومينو والشطرنج بينما كانت شاشة التلفزيون تعرض تمثيلية كوميدية مصرية. يا معلم هات شاي للمعلم مدبولي. قال الأمير الصغير وهو يضع يده على ذقنه:

– لم يعد الناس يغرسون أشجار سرو. لقد قطعوا حتى أشجار النخيل وزرعوا بدلا منها الألغام، حيث الجثث تنمو في الربيع.

قلت:

دعونا من ذلك. هل ألقوا القبض حقا على المسيح واقتادوه إلى بحيرة التماسيح؟ لقد ذهبت لأرى ما يحدث هناك ولكني لم أر أحدا.

قال يهوذا بشيء من الأسى:

– لقد وصلت متأخرا يا آدم بعد أن انفض الحفل الذي شارك فيه جميع ذوي الملابس البيض ووزعت فيه النساء المغنيات الحلوى والشوكولاته.

وتدخل الأمير الصغير:

– ذلك الرجل لم يكن المسيح بالتأكيد. كل ما في الأمر هو أنه كان يشبهه بشعره الطويل المنسدل فوق الرقبة. كان واحدا من

الهيبيين الذين يستجدون المارة في الشوارع. لا تجعلوا منه شهيدا هو الآخر. كان معه عشرون شخصا على الأقل. العذاب هو العذاب دائما. لماذا هذا التمييز؟

ابتسم يهوذا بمكر:

– ولكني سمعته يقول بالعبرانية: ايلي، ايلي لما شبقتني؟

قال الأمير الصغير:

– اوه، كان الرجل ممثلا بارعا، تصارعت على نهشه ثلاثة تماسيح.

قلت:

– ليرحمه الله.

يا بنت، يا بهية. كان الممثل يتعقب الممثلة في خان الخليلي. يا اوسطه خفض صوت التلفزيون، قال الأمير الصغير وهو يجرع الشاي الذي كان قد برد في استكانه:

– كلهم يتحدثون عن الشاب ذي الشعر الطويل. ولكن ماذا عن ذلك الجندي الرياضي الذي رموه في البحيرة؟ لقد قدم معجزة لا تصدق. ظل يقفز من ظهر تمساح إلى ظهر تمساح آخر حتى بلغ الضفة الأخرى واختفى بين الأشجار. كان منظرا لا تجده حتى في القصص الخيالية.

تنحنح الدكتور جيكل، منتهزا الفرصة ليفتح فمه:

– لم يعد أحد يؤمن بالمعجزات يا آدم، رغم كثرة المؤمنين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نظرت إليه:

– لقد نصب ملك الزمان نفسه أميرا للمؤمنين، وماذا جنينا من وراء ذلك؟ إنه ينكح كل ليلة عذراء في الجنة ويستلم أوامره من ملاكه الذي يزوره في النوم.

رد فرجيل بخبث:

– هذا هو حظه في الدنيا والآخرة. إنه يعرف قيمة ما يملكه.

قال يهوذا:

– ذلك يدعو إلى التأمل حقا. المسيحية لا تتحدث أبدا عن الحياة الجنسية للمسيح. الجنس خطيئة. الأنبياء الآخرون كانوا يحبون النساء.

قلت:

– لقد غسلت مريم المجدلية رجليه في طست بصابون لوكس ثم نشفتهما بشعرها الأسود الطويل.

علق يهوذا:

– هكذا كان الحب أيام زمان.

هل جلبت السلم معك؟ إصعد يا بني إليه وأعنه على هبوط صليبه. ربما لا يزال حيا. وحتى إذا كان قد مات فقد يبعث ثانية على يديك. ضمد جراحه وخذه إلى المستشفى. لا تنس أن تأخذ معك دفتر ضمانه الصحي. ولا تنكره أبدا حتى إذا صاح الديك ثلاثا، إذ

من العار أن تنكر رجلا تخلى عنه الجميع.

آمين. لا شيء يسلم من الفساد. رائحة الدم توقظ شهوة الفتك. وثمة دائما وحش يطلع من البحر وله سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان. ما همك أن يشتمك الرعاع؟ كل كلب ببابه نباح. الممثل يقبل الممثلة على الشاشة. أين اختفى ذلك الجندي الرياضي الذي سار فوق التماسيح؟ لا بد أنه يملك جوازا مزورا. ذلك ضروري حتى يبلغ المنفى ويملأ استمارات طلب اللجوء السياسي.

قال الأمير الصغير:

– مسيح وصليب، قتيل وقاتل. أهذا هو التاريخ؟ أهذا هو كل ما تملكه هذه الكرة الأرضية؟

رد يهوذا:

– لا بد من ثمن لكل شيء. لقد خضنا حروبا كثيرة. التجارب تعلم حتى الحمير.

هززت رأسي معترضا:

– ليس دائما. ما تعلمته البشرية حتى الآن لم يفدها كثيرا. كل شيء يكرر نفسه حتى لكأن النهاية هي البداية.

الأعوام تمر والجسد يهرم. أي نبي أنتظر الآن؟ في الماضي كان الزمن يمر بطيئا فأقتنص كل البهجة في لحظة واحدة. أما الآن فما أكاد أحتسي فنجانا من القهوة حتى يكون قد مر عام أو ربما ألف عام. جالسا في مقهى أطل على الحياة من وراء الزجاج الذي يفصلني عنها،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مفكرا في الجيوش التي تعبر الصحارى والقادة الذين يمتطون خيولهم أو يقفون داخل سيارات مكشوفة، رافعين أيديهم إلى الأعلى، مزهوين بالنجوم الملتمعة فوق أكتافهم وفي الملوك فوق عروشهم. الساحر ينهض في أغلاله والضحية من النار.

قال فرجيل:

– هكذا هو العالم! هكذا هو العالم!

ثم نظر إلي مواسيا:

– لا تحزن يا صاحبي فان الله معنا.

أخرج يهوذا من جيبه قصاصة جريدة، متسائلا:

– ترى ماذا يوجد في سدوم الليلة؟

وراح يتطلع إلى برنامج اليوم.

هنا وهناك

الساعة ٧ مساء: "يوميات سفينة نوح، يرويها نوح شخصيا". قاعة مسرح الشعب بالقرب من وزارة الدفاع. بطاقة الدخول ١٠٠ فلس لدعم المجهود الحربي

الساعة ٧ مساء: "امرؤ القيس يتحدث عن غرامياته في الجاهلية". مسرح الخيمة، شارع الربع الخالي. الدخول مجانا

الساعة ٧,٣٠ مساء: "فيلسوف أردني يثبت وجود الله بالمعادلات الرياضية". مسرح الإخوان. شارع الملائكة. بطاقة الدخول ١٥٠ فلسا لنصرة المجاهدين الأفغان

الساعة ٧,٣٠ مساء: "الشيطان يدافع عن نفسه"، محاضرة يقدمها الأستاذ إبليس. المسرح الأسود، شارع كاليفورنيا. بطاقة الدخول ١٠ دولارات

الساعة ٨ مساء: "حوار مفتوح مع نابليون". قاعة المسرح العسكري، شارع سانت هيلانة

الزمن يتشتت. لم يعد ثمة أمان. كلهم يأتون اليوم ويلقون مواعظهم. قلت لهم: أشعر بوجع في الظهر. ينبغي أن أذهب إلى الصيدلية لأحصل على حبوب مهدئة للآلام. يا صديقي، لماذا لا تستخدم مرهما ضد البثور في وجهك؟ لا بد أن شهرزاد تنتظرني في الشقة. لن يعثر شهريار عليها ما دامت عندي. سوف يبحث عنها حتى يصيبه اليأس. يمكنها أن تبقى عندي. سوف أفكر في ذلك. في مثل هذه الأمور ينبغي أن يكون المرء دقيقا مثل الساعة. أعتقد أن السيد نوح سوف يبالغ في تصوير متاعب رحلته داخل سفينته، كلهم هكذا. يقول أنه حمل جميع المخلوقات على ظهر سفينته، ومن كل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صنف اثنين. الانسكلوبيديا الصغيرة للطبيعة تقول ان هناك ١,٢ مليون صنف من المخلوقات تعيش فوق سطح اليابسة. هذا يعني انه كان على ظهر سفينة نوح ٤، ٢ مليون كائن. هذا يبدو لي كثيرا أيها السيد نوح. اسمح لي يا عزيزي. أعتقد أن الطوفان لم يشمل العالم كله. ربما اقتصر على الجزيرة العربية أو وادي الرافدين، وفي أفضل الأحوال على الشرق القريب. وماذا في ذلك؟ العالم الحقيقي كان موجودا دائما هنا. أنت تعرف أن القارة الأميركية لم تكن مكتشفة حينذاك. ينبغي أن نشكر كريستوفر كولومبوس الذي نأكل بسببه حتى اليوم الطماطم وندخن السيجاير والحشيش. كولومبوس، هذا المغامر ما كان يهمه شيء آخر غير البحث عن الذهب والتوابل. ترى ما الذي يمكن أن يعثر عليه هنا في بغداد، حيث لا يوجد هنود حمر أو ذهب أو فضة؟

كولومبوس، كولومبوس! ما كان لك أن تكتشف أميركا. ماذا جنينا من ذلك كله؟ قوافل العبيد المحشورة داخل اقفاص السفن، قادمة من أفريقيا إلى الأرض الموعودة الجديدة. رعاة البقر الفكاهيون. الحرب الأهلية. والقنبلة الذرية. الحرب الفيتنامية. الهبوط فوق القمر وحرب النجوم. ماذا جنينا من ذلك كله يا كولومبوس؟

وهذا الأعرابي امرؤ القيس، ماذا يعرف عن الجنس؟ فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع / فألهيتها عن ذي تمائم محول / إذا ما بكى من خلفها انصرفت له / بشق وتحتي شقها لم يحول / دعك من الشعر

أيها الملك الضليل. تعتقد أنك ابتكرت طريقة جديدة في المضاجعة. بخ بخ يا أخا العرب. الصينيون، رغم قصرهم اكتشفوا قبلك ١٢٠ طريقة على الأقل. هذا هو السبب في كثرة عددهم. سوف أعددها لك إذا أردت، ولكن ذلك قد يخدش حياءك. وكما تعرف فان ثمة فارقا بين النظرية والتطبيق. المهم هو التطبيق، لأن جميع النظريات رمادية، كما يقول فولفغانغ غوته، وهو شاعر ألماني، ربما عرفتك عليه ذات يوم. هو صديقي. كنت أراه دائما في مقهى اوييرباخ كيلر في لايبزغ، جالسا على مائدته في الزاوية، يكتب "فاوست". لم أكن أذهب إلى المقهى في الحقيقة من أجله وإنما للبحث عن صرافي السوق السوداء كلما احتجت إلى نقود جديدة. لم تكن في واقع الحال سوقا سوداء وإنما سوق بنفسجية، كما اعتدنا أن نسميها. كان ذلك في الاشتراكية. ليرحمها الله. كانت أياما جميلة، رغم كل شيء. كان غوته يروي لي الكثير من القصص الخيالية، واضعا قنينة الخمر أمامه. أذكر أنه روى لي ذات مرة أن الله سأل الشيطان بحضور رافائيل وجبرائيل وميخائيل وصف طويل من الملائكة:

Hast du mir weiter nichts zu sagen?
Kommst du nur immer anzuklagen?
Ist auf der Erde ewig dir nichts recht?*

---

* أليس عندك أكثر من ذلك لتقوله لي؟
هل تأتي دائما لتتهم فقط؟
ألا تجد أبدا ما يرضيك فوق الأرض؟
غوته – (مقدمة في السماء) – فاوست

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فرد عليه مفيستو وهو يفرك يديه:

Nein, Herr! ich find es dort, wie immer, herzlich schlecht.
Die Menschen dauern mich in ihren Jammertagen
Ich mag sogar die armen selbst nicht plagen.*

إني لأستغرب كيف عقد الله رهانا مع الشيطان حول الدكتور فاوست. من يمكن أن يرفض ذلك العرض المغري الذي قدمه مفيستو؟ حتى أنا كان يمكن أن أقبل به. هناك فرص قليلة في الحياة. الفرصة هي القطار الذي ينتظره المرء طوال حياته، فإذا لم يصعد فيه فاته. يا إلهي، كم قطارا فاتني حتى الآن! في يوم مشمس التقيت أجمل فتاة رأيتها في حياتي، داخل قطار شارع. ظلت تحدق فيّ طوال الوقت ثم نزلت فنزلت وراءها. سارت. تبعتها. التفتت. رأتني فتوقفت تنتظرني، ولكني ما كدت أبلغها حتى واصلت طريقي، وكأني حمار ذاهب إلى المعلف. لقد ربح الله الرهان بقدر ما ربحه الشيطان في حين خسر فاوست كل شيء. خسرت أنا الآخر رهاني.

قلت:

– أي شخص آخر سوى نابليون. إنني لا أطيق رؤية الجنرالات. لو

** كلا يا سيدي! إنني أجد كل شيء هناك، كما هو دائما، سيئا للغاية
البشر يثيرون أساي في أيام شكواهم
إنني لا أريد أن أزعج حتى البؤساء أنفسهم.
غوته – (مقدمة في السماء) – فاوست

كنت قادرا لشنقتهم جميعا. يقتلون ألوف الناس ثم يأتون ليتحدثوا عن انتصاراتهم. أستطيع أن أبصق في وجوههم جميعا وأنا مرتاح الضمير.

ثم أضفت بعد وقفة قصيرة، محدقا عبر الزجاج في الشارع:

– كلهم قتلة. في يوم ما عندما تنتهي غريزة القتل البدائية عند الإنسان سوف نحول الجنرالات إلى حمالين في سوق الشورجة.

اقترح يهوذا:

– والآن، هل ينبغي أن نواصل قطع رؤوس الجنرالات أم أن نذهب للاستماع إلى محاضرة. فكرت انني لا أطيق الاستماع الى المحاضرات. هناك لا يمكنك أن تدخن. تظل ملتصقا بمقعدك طيلة ساعتين أو أكثر، متظاهرا بالإنصات في حين أنك لا تنصت إلا إلى نفسك.

قلت ضجرا:

– دعونا من المحاضرات. ألا يوجد ما هو أكثر امتاعا في هذا العالم؟

ذهب يهوذا للاستماع إلى نوح، يسرد يومياته المضجرة فوق سفينته أو ربما قصة حياته بينما خرج الدكتور جيكل والمستر هايد، قاصدين مختبرهما الواقع على الضفة الأخرى من النهر. واسترخى الأمير الصغير على مقعده، محدقا في فرجيل الذي كان يقضم أظافره بأسنانه.

منذ عودة الأمير الصغير إلى الأرض لم يعد ثمة صديق أقرب منه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلي. أكيد أن الكثيرين كانوا قد سمعوا باسمه أو ربما قرأوا قصته التي كان أنطوان دي سان اكزوبري قد كتبها منذ زمن طويل. إنها في الحقيقة قصة ناقصة، تروي جزءا من طفولته. فقد هبط الأمير الصغير في الصحراء من السماء، قادما من الكوكب رقم ٦١٢ الذي لم يُرَ في المجهر إلا مرة واحدة، والتقى اكزوبري الذي كانت طيارته قد تعطلت وغطست في الرمل وطلب منه أن يرسم له خروفا. كان ذلك منذ أعوام طويلة. أمضى الأمير الصغير أياما مع الطيار التائه في الصحراء الأفريقية قبل أن يعود إلى الكوكب الذي كان قد جاء منه. وقد سبب فراق الأمير الصغير كآبة شديدة لاكزوبري الذي انتظره ست سنوات، بدون أن يظهر له أي أثر. ثم طلب من القراء أن يبادروا بالكتابة إليه وإخباره بعودته إذا ما أقبل عليهم ولد وضحك وكان شعره بلون الذهب. لا بد أن الكثيرين انتظروه، ولكن الحظ قاده من دون الآخرين إلي. ففي ذات يوم، في منتصف الليل، وأنا في غرفتي، إذ ندف الثلج تهمي كقطن منفوش، جالسا أمام المدفأة، مصغيا إلى أغنية شعبية في المذياع عن بلبل مات في قفص وأميرة ضائعة في غابة سمعت قرعا على النافذة، خفيفا مثل قطرات مطر. كان أحد ما يناديني، معلقا في الفضاء الأبيض أمام الطابق الخامس من العمارة المعتمة. عندما فتحت النافذة دخل الأمير الصغير وعانقني قائلا " ها أنذا أعود ثانية ". وحزنت لأن اكزوبري الذي انتظره طويلا كان قد مات عندما سقطت طائرته القاصفة فوق سماء فرنسا في الحرب العالمية الثانية. كان سيفرح

كثيرا بالتأكيد لو عاش وعرف بعودة أميره الصغير الذي لم يعد صغيرا. فقد كبر خلال فترة غيابه وأصبح شابا، يتابع وهو في كوكبه الصغير البعيد كل ما يدور فوق الأرض حتى أصبح يعرف الكثير من الأمور أفضل مني. لقد فرحت حقا عندما أبلغني أنه قد قرر الإقامة حتى النهاية هنا فوق الأرض، حيث أصبح خلال فترة قصيرة رائد فضاء مرموقا، فضلا عن هوايته في كتابة قصص الخيال العلمي والروايات البوليسية. وحتى لا ينكشف أمره كنت قد نصحته أن يستبدل اسمه باسم آخر، إلا أنه رفض ذلك بإباء، معلنا اعتزازه بالاسم الذي كان اكزوبري قد أطلقه عليه، وهو وفاء نادر هذه الأيام.

أسمع الأمير الصغير يقول، كما لو أنه يحدث نفسه:

– إنني أفضل سفينتي الفضائية على أي سفينة أخرى حتى إذا كانت سفينة نوح. هناك في المتاهة الكونية يتعاقب الغروب والشروق بسرعة مدهشة، فالليل الذي يفصل بينهما لا يدوم سوى نصف ساعة. في المدار الكوني لا توجد ليال بيض، خالية من النجوم، كما تصورها بوشكين وإنما ليال معتمة وأخرى استوائية، ذات نجوم شفافة، غير متوهجة، معلقة مثل قناديل فوق الفضاء الأرضي.

السندباد الأبدي يتنزه بين المجرات. كنت مع الأمير الصغير وفرجيل في المدار الكوني، أجلس على كرسي وأدخن، محدقا في الغيوم تحت رجلي. الليل والنهار يتعاقبان في لحظات. الشفق في أربع دقائق فقط.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الظاهرة الآستروفيزيائية والمحيط الأيوني، حيث الامتدادات الحلمية إلى المستقبل. أين هي كاميرتك يا أخا العرب؟

تعال انظر إلى النيران الكبيرة الملتهبة فوق الكرة الأرضية والبروق في الليالي الداكنة. هذه هي التماعة المحيط العلوي في سماء من النجوم. التضاد الشفاف الخابي في عيوننا. تلك هي سدوم تحتنا. بقعة متوهجة تسبح في خلفية معتمة. ستار الغيوم. بروق مكثفة وكهرباء في مركز الأعاصير. النجم القطبي الملتمع. الكرة الأرضية بأضويتها البعيدة. هل تعرف نكتة تجعلنا نضحك يا بني في هذه المتاهة؟ حسنا، اروها لي وسوف أدعوك لتسكر على حسابي في شارع أبي نؤاس. يمكنك أن تجرع ما تشاء من العرق الزحلاوي، بشرط أن تكون نكتة جيدة. أنظر ها هي النيازك تتساقط فوق الأفق. لا يغرنك ذلك، فالأفق الحقيقي أعمق بكثير، أخضر وأحمر. ذات مرة التقى شاب فتاة جميلة، تتنزه في الغابة فأراد أن يستميلها، قائلا: "أليس كل هذا رائعا؟ هذه الزهور الفواحة، هذه الأشجار الباسقة، حتى لكأننا في غابة بدائية." ردت الفتاة قائلة: "حقا، حتى القرد موجود فيها." ألم تضحك؟ قل لي انك قهقهت ليطمئن قلبي. ننتقل من الأحمر إلى الأصفر إلى البرتقالي إلى الأخضر. كتلة مضيئة تعمي البصر مثل شمس مشوهة تخترق محيط الأرض. هل كان ما شاهدناه سرابا؟ الغيوم في الوسط. النهارات الصافية. حدود الأفق شفافة، ممسوحة ومتعرجة. شرائط وطبقات. الغيوم الليلية الفضية المضيئة

تلوح لنا. كرستالات جليد. دورة أخرى. دورة أخرى يا صديقي ونغيب داخل الكون.

– تعال أيها الأمير الصغير، انني أدعوك الليلة لتسكر على حسابي. ماذا ينقصنا في هذه المدينة؟ حتى القرد موجود في الغابة.

– إلى أين نذهب؟

– إلى كل مكان أو لا مكان، فالمساء لا يزال في أوله.

ماذا قال الشاب السائر في الغابة؟ المسكين اعتقد انه موجود في غابة بدائية. كان عليه أن يقصد شارعا للعاهرات بدل مشاكسة الفتيات المؤدبات اللواتي يتنزهن في الغابات. هناك أمام الغرف في بيوت الدعارة، كما في قاعات المؤتمرات الدولية والمحاضرات الفلسفية في الجامعات وفي استوديوهات الإذاعة والتلفزيون يشتعل الضوء الأحمر داخل مستطيل بلاستيكي عندما يكون الشغل قائما على قدم وساق. يعود الشاب خائبا من الغابة ويخرج إلى المدينة، ذارعا اياها طولا وعرضا. يا بني أطفىء الضوء وادخل، فهناك دائما من ينتظرك في الغرفة.

غادرنا المقهى وخرجنا إلى المدينة، متنزهين. مررنا أولا بالحي الارستقراطي، حيث تتدفق المدينة عبر بارك ممتلىء بالتماثيل لشوبرت وبروكز ويوهان شتراوس الابن، ورأينا الدانوب الأزرق القديم الجميل يلف المدينة بأذرعه الكثيرة ثم بلغنا بفسار غاسه وطرقنا باب بيت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صغير، وضع على مدخله الرقم ٢، منتظرين أن يفتح بيتهوفن لنا الباب. كنا نريد أن نسلم عليه فقط. غير أن الباب ظل مغلقا. فكرت أنه أصم، لن يسمع أبدا صوت طرقاتنا. سمعناه وهو يلحن السمفونية الثانية. دعنا منه، قال فرجيل، مبتعدا عن البيت، سوف يتوجب علينا أن نصرخ حتى يسمع ما نقوله. وتبعته، شاقا طريقي في الظلام، متمتما مع نفسي، هذه البيوت ذات الأبواب المغلقة دائما تصيبني بالسقم. اللعنة! كانت أحذيتنا تطقطق فوق الأسفلت، مارين بأزقة ضيقة، مختنقة بالسيارات قبل أن ننتهي إلى الشارع الصاعد المؤدي إلى القلعة. اقترح الأمير الصغير أن نمر بفرانز كافكا ونسلم عليه، قائلا انه يسكن قريبا من هنا وانه كان عنده ذات مرة. توقفت وحدقت في وجهه:

أعرف شاعرا قصد هو الآخر بيت كافكا وكتب عنه قصيدة. قال الأمير الصغير، منزعجا:

– وماذا في ذلك؟ هل تعتقد اننا نقلده؟ الجميع يقصدون كافكا ويزورونه. إنه ليس ملكا لأحد حتى يحتكر زيارته هذا الشويعر أو ذاك الكويتب. حسنا، قل ذلك ولا تتحرج!

قلت مستغربا:

– لا يتطلب الأمر أن تفقد أعصابك. هدوءا، هدوءا أيتها النفس المضطربة! كل ما في الأمر هو أنه ذهب إلى كافكا فوصل متأخرا، حيث وجده ميتا فوق سريره، يحدق من النافذة.

شعر الأمير الصغير فجأة بالحزن فصرخ:

– هل مات؟ لا أكاد أصدق ذلك. كان أعظم كاتب بوليسي في زمننا. لماذا لا تنشر الصحف خبرا مهما مثل هذا؟ يا إلهي، كلما أحببنا أحدا مات. يبدو أننا سوف نموت أيضا يا آدم. هذا محزن حقا. اللعنة!

قلت:

– لقد دعوتك لنسكر سوية الليلة، ولكن ها أنت تقودني من شارع إلى آخر للقاء أصدقائك الموتى.

خفت الأمير الصغير:

– أنت محق. ليس هذا هو الوقت المناسب لتقفد الأصدقاء.

قلت:

– ها أنت تفهم أخيرا. شكرا لله.

في ذلك الليل. في ذلك الليل بالذات. طقطق فرجيل أصابع يديه في ضوء الشارع الخافت، قائلا:

– أعرف أماكن كثيرة للسهر في هذه المدينة. سوف نقصد أحدها إذا شئتما.

قال الأمير الصغير متذمرا:

– الحياة هنا فقدت بهاءها. في الفضاء الخارجي، في الفضاء الخارجي وحده أشعر بالحرية وأنا داخل كبسولتي. فضاء لا نهائي. جثة تطوف الكون إلى الأبد. جثة لا يدب فيها الفساد. نيزك من لحم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعظم.

قال فرجيل:

– دعنا من فضائك الخارجي، فالسهر لا يطيب إلا في عاموراء. سوف نشعلها الليلة.

قلت:

– عاموراء! يا إلهي. لكم اشتقت إليها في حياتي. سوف نجعل من ليلتنا ليلة ليلاء.

كنا نسير على رصيف الشارع عندما مرت سيارة أجرة في الجانب الآخر. أشرت بيدي للسائق الذي كان قد رآنا فتوقف ينتظرنا. عبرنا واحة من العشب الندي وسط الشارع، مسرعين باتجاه السيارة. قلت للسائق العجوز وأنا ألقي بنفسي فوق المقعد الخلفي:

– إلى عاموراء.

صعد فرجيل والأمير الصغير أيضا.

التفت السائق مبتسما:

– عاموراء كبيرة. إلى أين في عاموراء؟

ابتسمت له:

– حيث يطيب السهر.

تدخل فرجيل:

– خذنا يا رجل إلى شارع الكاهنات المقدسات في قلب المدينة.

ضحك السائق، هازا رأسه:

– عاموراء، يا عاموراء! ان قلبي يخفق كلما ذكرتها. آه، لقد ولت أيامنا الجميلة.

قال الأمير الصغير:

– دعك من هذه الآهات، الحياة تزخر دائما بالمفاجآت.

رد السائق:

– ليس دائما، ليس دائما. في خريف العمر تنتهي كل المفاجآت.

قال الأمير الصغير:

– الحياة هي المفاجأة.

قلت مؤكدا:

– اسمع. كان عندي صديق لا هم له سوى البنات. وقد قال لي ذات مرة: إذا اختفت النساء من حياتي فسوف أنتحر. لم أجد بدا من أن أعقد رهانا معه حول الأمر. التقيته بعد سنين طويلة وكان قد أصبح شيخا، يتكيء على عصاه. فقلت له: أعتقد انك خسرت رهانك يا صديقي، اذ لا يبدو أنك انتحرت، كما وعدتني. هل تعرف ما الذي قاله لي؟ قال: إذا كنت قد أصبحت عاجزا عن اصطيادهن في الواقع فهذا لا يعني أنني قد كففت عن اصطيادهن في الخيال.

أطلق السائق ضحكة مجلجلة:

– وما القبض؟ هذا كلام مفلسين يا سيدي.

توقفت السيارة. كانت عاموراء تلتهب بأضوية النيون الملونة، غارقة في عيدها الخاص. بارات ومقاه ومراقص ودكاكين جنس لا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تحصى، تلتصق ببعضها وتتداخل حتى لكأنها جسد واحد لا حدود له. ألوف من النساء الساهرات والرجال يتنزهون على أرصفة تضج بموسيقى الروك. وفي الزوايا تقف العاهرات الشابات، منتظرات زبائنهن. عاهرات نصف عاريات، يرتدين سراويل سوداء، بحجم الكف، ملتصقة بمؤخراتهن، وأخريات محافظات، يرتدين عباءات، يتركنها مفتوحة عند الصدر. فنادق تؤجر غرفها بالساعات، وسيارات سياحة بغرف، مركونة في الأزقة الجانبية. جررت الأمير الصغير من يده:

– هذا الجحيم يعجبني.

كانت الصور العارية معلقة على الجدران. فتيات يعرضن فاكهة أجسادهن ورجال يتكومون فوق نساء. كانت الصورة التي تجعل النساء بالذات يغرقن في الضحك صورة لشاب أفريقي، يضحك ببلاهة، مشيرا بيده إلى ما بين فخذيه: ٣٥ سم (الفائز بالجائزة الأولى في مسابقة عاموراء السنوية).

قالت إمرأة ارستقراطية لصديقتها وهما تتأملان الصورة، ضاحكتين:

– لو كنت في اللجنة لما منحته الجائزة. انظري كم هو منحن نحو الأسفل. إنه لا يكاد يستطيع حمله.

ردت صديقتها:

– كانت عندي فكرة أخرى عن الأفارقة، ولكن لكل شعب مميزاته

الخاصة.

قال الأمير الصغير:

– هيا لنخرج. يكفي ما رأيناه.

كنا مرة أخرى في الشارع.

رجال ونساء يتدافعون عراة، خارجين من كهوف النياندرتال الأولى إلى السهوب. فكرت انني أخجل أن أرى عاريا في الشارع. وماذا في ذلك؟ هل ولدتك أمك وأنت ترتدي بذلة كحلية وتشد ربطة حول عنقك؟ الملابس تصنع الناس، يقول الألمان. وماذا يفعل العري؟ يجعل الناس يذهبون إلى بحيرة غريناو ويلعبون الكرة الطائرة أو الريشة على الساحل. في أيام الصيف الحارة كنت أذهب إلى هناك، أخترق صفوف السابحين والسابحات العراة بكامل قيافتي أو أجلس على مقعد وأظل أحدق في الأجساد الملتمعة في الشمس أمامي. كان لاعبو الكرة الطائرة يثيرون ضحكي حقا وهم يتقافزون نحو الكرة. منظر الفتيات كان مطمئنا ما عدا واحدة كانت تعرض مفاتنها بطريقة مسرحية كلما مررت بها. ليغفر الله لها خطاياها، فقد كانت فاتنة حقا. كل امرىء حر بجسده، يفعل به ما يشاء. ذات مرة في قرية في العراق رأيت أعرابا يعبرون نهرا. تعروا جميعا، رجالا ونساء، من ملابسهم وحملوها بأيديهم فوق رؤوسهم قبل أن ينحدروا إلى الماء. كنت الوحيد الذي عبر النهر بكل ملابسه بينما كانوا هم يضحكون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

علي. لقد كلفتني حماقتي تلك زكاما دام أكثر من أسبوع. آه، دع هذه الأفكار الصبيانية واستمتع بما يأتي به القدر. فربما الليلة خمر وغدا أمر.

ابتسمت لفتاة ترتدي بنطلونا قصيرا وتتكيء على عمود إعلان فاقتربت مني:

– هل معك سيارة؟

هززت رأسي:

– كلا.

قالت:

– لا يهم. غرفتي لا تبعد كثيرا من هنا.

قلت متهربا:

– ليس الآن، قد أعود ثانية.

تركتني الفتاة وانصرفت. لحق بي الأمير الصغير وفرجيل الذي كان يبدو غارقا في أحلامه. عبرنا الشارع إلى الرصيف الآخر ودخلنا كهفا يكاد يكون معتما، مليئا بالدخان، يصخب بالموسيقى والضوضاء، شاقين طريقنا عبر أشباح تتحرك في الظلام أو تجلس، متكئة على الجدران. جلسنا على طاولة عتيقة من الخشب الماهاغوني، بدون غطاء، كان يتحلق حولها شاب وفتاتان. كانت إحدى الفتاتين متكئة على الجدار بشعرها الأسود الطويل الذي يغطي جانبا من وجهها. رفعت رأسها وقالت:

– هالو.

ابتسمت لها ناظرا في عينيها:

– هالو.

مد الشاب الذي كان شعره المنسدل ينحدر حتى الكتفين ذراعه واحتضن الفتاة الأخرى التي كانت تزين أذنها اليمنى بقرط على شكل وردة، فوضعت رأسها فوق صدره بحنان وأغلقت عينيها. أخرجت الفتاة ذات الشعر الأسود من كيس أمامها فوق الطاولة ورقتين للف السيجاير ومررت طرفيهما على لسانها، ملصقة احداهما بالأخرى ونثرت فوقهما التبغ، ثم التقطت بعد ذلك بين أصابعها قطعة صغيرة خضراء، وجهت إليها نار ولاعتها وفتتتها فوق التبغ، صانعة قمعا رفيعا، مغلقا من الأعلى وضيقا من الأسفل.

قال الأمير الصغير:

– أنت ماهرة حقا.

ابتسمت، دون أن ترفع عينيها:

– لا ينبغي ضياع أي نثار.

ثم أشعلت النار في الطرف العلوي، ممسكة باللفافة بين السبابة والاصبع الوسطى وكورت كفها اليمنى، ماصة الدخان عبر فراغها:

– كل شيء على ما يرام.

ثم ناولتني اللفافة:

– هاك احلم يا ولدي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ارتشفت نفسا عميقا من القمع وأعدته إليها، فناولته إلى الشاب ذي الوجه الحليبي الشاحب الذي غرق في الدخان، هامسا بصوت دافىء:

– هارا كريشنا، هارا كريشنا.

التقطت الفتاة التي كانت تزين أذنها بقرط الوردة اللفافة:

– أكاد أسير فوق قوس قزح.

وضعتها بيد الأمير الصغير:

– كن رجلا واتبعنا.

قال الشاب:

– مع العشب يصبح كل شيء أسهل. علينا أن نحلم وليذهب الأغبياء إلى الجحيم.

جاءت النادلة التي لم يكن يغطي جسدها سوى ورقة خضراء، شبيهة بتلك التي اعتادت حواء ارتداءها في الجنة فسألتها، مشيرا بيدي إليها:

– ورقة اصطناعية، أليس كذلك؟

هزت النادلة الشابة رأسها:

– ماذا تعتقد يا سيدي؟ لقد قطفتها اليوم بنفسي في الجنة. إلمسها لتتأكد بنفسك.

ومددت أصابعي بتردد ولمست حافة الورقة:

– إنها حقيقية بالفعل.

قالت النادلة، مؤكدة:

– من شجرة تفاح. هناك الكثير منها في الجنة.

قلت:

كنت أعتقد أننا في الجحيم.

ضحكت الفتاة:

هناك ممرات سرية كثيرة بين الجحيم والجنة. إنني أعيش في الجنة وأعمل في الجحيم. كثيرون هم الذين يفعلون ذلك.

أومأت برأسي، موافقا:

– آه حقا. لقد مر زمن طويل على نزوحي من الجنة.

ذهبت النادلة وعادت بقنينة نبيذ، وضعتها على المنضدة. قال هانس الذي كان قد عمل طباخا على ظهر سفينة بعد أن هرب من البيت قبل أعوام:

– والدي الغني حتى القرف يريدني أن أكون مثله. لا أطيق حياة هؤلاء الأغبياء. من أجل النقود يذبحون حتى أمهاتهم. لم أكن أريد أن أكون مثله. ذهبت إلى البحر. في الموانيء يمكنك أن تحصل على الحشيش دائما. ولكني هجرت البحر قبل شهر. هناك أيضا يكون المرء وحيدا كالبحر نفسه. الأمر يختلف في عاموراء. هنا الجميع هم أخوتي.

سأل الأمير الصغير:

– وماذا تعملين أنت يا هيلدا؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أجابت هيلدا التي كانت تعد لفافة أخرى:

– إنني أدرس الفن. ليوناردو دافنشي، ميشائيل أنجيلو، ماتيس، سيلفادور دالي، بيكاسو، إلى آخر القائمة الطويلة من المجانين.

– أنت رسامة إذا؟

سأل فرجيل. امتصت هيلدا نفسا عميقا من لفافتها:

– ربما، لست متأكدة.

رفعت كونستانزا رأسها:

– إنني أحب رسومها. تحفر في طبقات الروح مثل عالم آثار.

قالت هيلدا ضاحكة:

– كوني شاعرة. إنها ترى في رسومي ما لا أراه أنا نفسي.

رفعت كأسي:

– في نخب هيلدا وكوني.

مدت هيلدا رأسها إلي، واضعة فمها فوق فمي فأمسكت بها من رأسها واستغرقنا في قبلة طويلة. سألت كونستانزا:

– وماذا تعملون أنتم؟

قال الأمير الصغير:

– أنا رائد فضاء. أما فرجيل وآدم فشاعران.

ندت عن كونستانزا صيحة دهشة:

– رويئد فضاء حقيقي. لماذا أنت بعيد هكذا؟ تعال اجلس قريبا مني.

جلس الأمير الصغير لصقها وراح يمسد بأصابعه شعرها فانحنت عليه بكل جسمها. قبلها في عنقها، صاعدا إلى قرط الوردة في أذنها قبل أن يبلغ فمها الشهواني الملتهب. سألت هيلدا:

– أهو رائد فضاء حقا؟

قلت:

– طبعا. ربما وافق على أن تحلّقي معه ذات مرة.

ثم خاطبت الأمير الصغير:

– ما رأيك أيها الأمير برحلة جماعية إلى الفضاء الخارجي؟

رد الأمير الصغير بنبرة جادة:

– سوف أدبر الأمر إذا كنتم جادين حقا.

قالت كونستانزا وهي تحضن الأمير الصغير:

– يا لها من فكرة ساحرة. سوف أجلب معي حفنة من "غبار الملائكة" أو من China White المدهش. هكذا بعيدا عن هذا الجحيم القذر.

قالت هيلدا:

– في شرفتنا حديقة صغيرة من عشرة أوعية للزهور، تمدنا بما يكفي من عشب الفردوس. إننا نصطاد التنين بأيدينا. ذلك مبهج. أليس كذلك؟

قلت:

– من لا يبتهج للتنين في الشرك، ولكن بدون طلقة ذهبية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت كونستانزا، مستنكرة:

– من يريد أن يموت في مرحاض عام أو على رصيف قطار تحت الأرض!

ابتسمت:

– ليرحم الله الموتى. هاري كريشنا! هاري كريشنا!

فتاة حرة تفعل ما يحلو لها. تضع يدها فوق فخذي. يد صغيرة بأظافر تفوح برائحة الحشيش. لا بد أن شهرزاد قد نامت الآن. ربما انتظرتني طويلا. لقد خدعني يهوذا. كان ينبغي أن أصفعه. رجل بلا مباديء، دجال حقيقي. يقول أنه كتب اطروحة دكتوراه عن قبلة يهوذا. د. سمعان الصديق: مستشار قانوني في شارع الأوقاف. مهووس بالمسيح. انه الشعور بالذنب. في العشاء الأخير ظل يحك مؤخرته. حواري مصاب بالبواسير. ليلة مضمونة، حمدا لله. سوف تزعلان إذا لم نذهب معهما. ولكن أفريقيا تنتظرني. سوف يطل رئيس التحرير غدا صباحا برأسه ويحدق في من وراء نظارته: هل انتهيت من كتابة موضوعك عن افريقيا؟ الناس يموتون هناك وهو لا يفكر إلا في مقالتي. أرجو أن يرموه هو الآخر في البحيرة. لقد التهمت التماسيح رئيسين للتحرير قبله. هيلدا لي وكونستانزا للأمير الصغير أما فيرجيل فسوف ينتظرنا كعادته أمام الباب. قسمة عادلة قابلة للتعديل على أي حال. هانس، أيها البحار القديم نم في مقعدك

أو عـد إلى سـفـينتـك قـبل مـجيء الطوفـان. هيلدا تدرس الرسم في الأكاديمية. يداها ملطختان بالأصباغ وعلى صدرها مريلتها، واقفة أمام القائم. لفي لنا سيجارة يا بنية ودعي كوني تقرأ لنا آخر قصيدة لها. جنازة من هذه؟ يا للهـول. هؤلاء الذين يحـملون التـابوت على أكتافهم، سائرين بين النخيل إلى المقبرة. أصبحت القبور ترفا هنا. لا مكان للموتى الجدد. دبر حالك في دنياك واشتر لك قبرا بسعر متهاود قبل فوات الأوان. رجل يمر في قصيدة لسيزار فالييخو: هل ينبغي أن نتحدث مع بعضنا عن بيكاسو؟ أم عن موظف الجمارك، هنري روسو؟ جدة بيكاسو كانت مصرية، تعيش في دلتا النيل. أقنعة وطواطم. غيتارات تكعيبية. حمار فرانز مارك. إبحثي يا كونستانزا عن الجديد في الماضي، فوق حجارة العصور. يقول الأمير الصغير إنه يفكر في كتابة رواية بوليسية، تقع أحداثها داخل مركبة فضائية. معقول. لم لا؟ كل شيء ممكن. رائد فضاء وحيد داخل مركبة في المدار الكوني يقتل مطعونا بضربات خنجر. لا مشكلة. جثة عائدة إلى الأرض. من هو القاتل؟ سوف يصعب حتى على أجاثا كريستي العثور عليه. كلما كان اللغز أصعب كانت الرواية أكثر إثارة. هذه هي القاعدة. ولكن فكروا جيدا: رجل يصعدإلى مركبته معافى وينطلق بها إلى الفضاء الخارجي ثم يعود قتيلا. لا ينبغي أن يخطر ببالكم أن القاتل كان متخفيا داخل المركبة. فلو كان الأمر كذلك لأمسكوا به عند العودة. الأمير الصغير وحده يعرف الحل، غير أنه لن يبوح به قبل طبع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرواية. إنه محق على أي حال. لا ينبغي للسر أن يفضح قبل الأوان. دعنا يا صديقي نفاجيء الناس بما لا ينتظرونه. That is the question في نهاية الأمر. نم يا صديقي هانس، نم. أمك في البرية وأبوك في الوادي. نم يا عزيزي، نم.

سحب دخان ملون تغطي رؤوس ظلال تتكدس حول الموائد، والنادلات اليافعات قادمات، ذاهبات، يوزعن الابتسامات في ليل المغارة. موسيقى تضج مثل طبول تقرع في غابة هنود حمر. كلمات مبهمة. أيها المهووس انظر إلى الأسفل. أرواح ضائعة تعدو في زقاق خرب. من الطائرة ترى المراعي الهندسية. بعد ذلك كله تطالعك المدن بأبراجها وبيوتها. من لا يحب موسيقى البيتلز! كلهم قدموا من ليفربول ثم ماتوا واحدا بعد الآخر، مخلفين لنا موسيقى الرؤوس الصلعاء. هؤلاء التائهون، أكلة اللحوم النيئة، يقفون ويستجدون المارة، رافعين الصلبان المعقوفة وشعارات ال S. S. . فاشية حلم ميت. طاعون يزحف من شارع الى آخر. الفاشيون اخوة، تختلف أسماؤهم فقط. إنهم جميعا يخرجون من فرج واحد: الوحدة. لا لن نكون وحيدين الليلة ما دامت هيلدا وكونستانزا معنا. أم هيلدا معلمة، تسكن في حي قريب من حينا. والدها انتحر قبل عامين. رمى نفسه في النهر، ذات مساء في الشتاء. قال إنه لم يعد يفهم العالم. من يفهم العالم؟ الوحيدون الذين يفهمونه هم الأكثر ضلالا. ذلك منطقي بعد كل حساب. سيجارة أخرى ثم يقبل الصباح.

كان هانس البحار قد انتهى تماما. قال إنه متعب، يريد أن ينام فنام فوق مقعده. قالت كونستانزا:

– دعوه ينم. سوف يستيقظ عند الفجر.

نادينا النادلة ودفعنا حسابنا. في الشارع قلت لهيلدا:

– أفضل أن نذهب إلى شقتي. عندي قنينة ويسكي. هناك يمكن أن نواصل الشرب.

هزت هيلدا رأسها بمكر:

– ليس الليلة. إننا متعبتان.

ثم مدت يدها مودعة:

– سوف نلتقي مرة أخرى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قبلات فاترة ثم غابتا في أحد الأزقة. قال الأمير الصغير:

– حظنا عاثر حتى في عاموراء.

أين الآن؟ غرقنا في لجة الليل، عائدين إلى البيت سيرا على الأقدام، صامتين في الفجر الذي انبلج نوره.

عندما استيقظت وجدت شهرزاد تجلس على كرسي وتحدق في صامتة. كنت لا أزال مصدوعا. فركت عيني ونهضت، ملقيا نظرة على ساعة يدي التي كنت أضعها تحت وسادتي عندما أنام وقلت بصوت بدا لي خافتا:

– يبدو أنني قد نمت طويلا.

قالت شهرزاد:، كما لو أنها تدافع عن نفسها:

– ما كنت أعرف ان كان ينبغي لي أن أوقظك أم لا. عندما عدت أمس كنت متعبا جدا.

قلت:

– لقد أفرطت في الشرب. لا أعرف حتى كيف بلغت الشقة.

قالت شهرزاد:

لقد أوصلك صديقك فرجيل. قال انه سوف ينتظرك صباحا في المقهى القريب من الشقة. لا بد أنه هناك الآن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتذكرت أننا كنا قد قطعنا الطريق من عاموراء إلى شقتي مشيا على الأقدام:

– رجلاي ما زالتا تؤلمانني. لقد مشيت طويلا. لا بد أنك ضجرت وحدك في الشقة.

ردت شهرزاد مبتسمة:

– آه، كلا. لقد تفرجت على التلفزيون.

– أختك الصغيرة دنيازاد تعرف الشقة. أرجو ألا تدل شهريار عليها.

– لم أقل لها أي شيء. لن يخطر في بالها انني يمكن أن ألجأ اليك.

– أرجو ذلك.

ونهضت شهرزاد:

– سوف أعد لك الفطور.

انتبهت إلى أن شيئا ما قد تغير في ايقاع حياتي:

– هذه هي المرة الأولى التي يعد لي أحد فيها الفطور.

قالت شهرزاد بتلقائية:

– كنت أحلم دائما أن أعد الفطور للرجل الذي أحب.

ثم دخلت المطبخ وتركتني أتأمل في كلماتها التي بدت لي خالية من المعنى. كان ذلك كثيرا علي، إلا أنني لم أعره اهتماما. فاذا كانت تريد أن توحي لي بأنها تحبني فتلك هي مشكلتها، لا مشكلتي. ربما كانت تشعر بالجميل. وذلك أمر آخر. ماذا كان يمكن أن أفعل سوى

أن أعطيها مفتاح شقتي؟ كانت مهددة بالقتل وما كان بإمكاني أن أطردها. ومع ذلك فإنني لم أعدها بشيء. حسنا، يمكنها أن تبقى يومين أو ثلاثة أو حتى اسبوعا. يا الهي، لست نبيا لأحاول انقاذها من ورطتها. ما علاقتي بكل ذلك؟

عادت شهرزاد بالفطور الذي وضعته على المائدة التي غطتها بشرشف أبيض نظيف. انتبهت إلى أن ثمة أمورا كثيرة قد تغيرت في الغرفة. كانت يد شهرزاد قد امتدت إلى كل شيء فأعادت ترتيبه وتنظيمه. لم تعد ثمة كتب متروكة فوق الطاولة. وامتلكني الذعر عندما رأيت أن جواربي وملابسي الداخلية مغسولة ومعلقة بحبل مشدود في الشرفة. يا إلهي، ربما اعتبرت نفسها زوجة لي. عندما جلست لآكل ظلت تحدق في، كما لو أنها تتأمل تمثالا.

– لماذا لا تأكلين؟

ابتسمت:

– لست جائعة.

فكرت أن أقول لها انه ما كان ينبغي لها أن تغسل جواربي وملابسي الداخلية، إلا أنني لم أكن أريد أن أقلقها. فهي قد لا تفهم لماذا لا ينبغي لها أن تغسل ملابسي. ربما وجدت متعة في ذلك. ربما كانت تريد أن تثبت لي أنها هي الأخرى امرأة مثل كل النساء الأخريات. فكرت أن أنام معها قبل أن أخرج إلا أنني خجلت من أن أطلب منها ذلك. كنت أعرف أنها تنتظر اشارة مني غير أنني ما كنت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أريد أن أشعرها بأنني أطلب منها ثمنا لبقائها في شقتي. كانت ثمة فوضى في رأسي. قبل أن تأتيني لم يكن ليهمني مصيرها كثيرا. أما الآن فها هي تجلس قبالتي وتبتسم مثل أي فتاة عاقلة. لا يمكن لي أن أطردها هكذا ببساطة، لا يمكن أن أرمي بها في الشارع. كانت موجودة أمامي وكنت بطريقة ما مسؤولا عنها.

قلت وأنا أرتدي ملابسي لأخرج:

– لا تغادري الشقة. إذا احتجت شيئا فاطلبي من منصور أن يشتريه لك.

سوف اوصيه في طريقي.

– أرجو ألا يحدث أحدا بوجودي هنا.

– كلا، لن يفتح فمه. إنني أعرفه.

واقفا أمام المرآة وضعت يدي فوق شعرها وهمست برقة:

– كوني عاقلة ولا تفتحي الباب لأحد.

ثم تركت بعض النقود فوق المائدة وخرجت.

لا أحد هنا يفلت من العيون. كل ما تفعله يا آدم تراه عيون تحدق في شاشات التلفزيون، بينما الجواسيس يحتسون الشاي. إنهم هناك دائما، يقفون فوق برج المراقبة ويسجلون أفعالك في دفتر ملاحظاتهم. سر دائما إلى الأمام ولا تلتفت إلى الوراء. دع الجواسيس يجلسوا على مصاطب في بارك ويفكروا فيك. لا تعتقد أبدا أنك لم تكن مفيدا.

كل شيء يمر، كل شيء ينتهي. لا أحد ثمة سواك في النهاية. إنني أصافحك.

جرثومة تحت المجهر، جرثومة تعاني من الزكام وتتناسل. كم جرثومة توجد في العالم في لحظة معينة؟ لا بد أن ثمة رقما ما. أحد ما يعرفه سوى أنه لن يقوله لي. حدق في هذه الجرثومة، ذات الذنب. إنها تضيء في الظلام. تسبح كأفعى في الدم. إذا ما اقتربت منها فسوف ترى وجها شاحبا وعينين زائغتين وجسدا مهزوزا. كثيرة هي القصص. قصتنا هي الأجمل دائما.

عيون في كل مكان. عيون وآذان. آذان في كل مكان. آذان وعيون. حشرات بمخالب من حديد Made in Japan داخل الزنزانات في خدمة الدكتاتوريات. عاش الساحر الأكبر. هنا أنت دائما وراء الجدران أو داخل الزنزانات. الثعلب في الفخ. تعال أيها السيد واكتب رسالة إلي. سوف أدعك تبكي أو تضحك على هواك. أنظر في عيني أقل لك من أنت. غير أنني لن أقوله لك حتى لا تحزن، فنحن أصدقاء بعد كل حساب. الضعفاء يتكئون على أكتاف بعضهم. لا بد من الصمت. لا تجأر بالشكوى. الصبر مفتاح الفرج سوى أنه مفتاح معلق في غرفة جنود نائمين. إننا لا نصرخ أبدا في غرف التعذيب. الكرامة أولا، في انتظار وصول تمثال الآنسة Liberty التي تقف فوق دكتها، منادية اياي:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إجلب لي متعبيك

إجلب لي فقراءك،

جماهيرك المقهورة

وهي تتطلع إلى الحرية.

دع هؤلاء الذين لا وطن لهم،

هؤلاء المنحنين أمام العاصفة

يأتوا إلي

فأنا أرفع مشعلي عند البوابة الذهبية.*

ايما لازاروس، هذا كثير جدا، هذا كثير جدا في بيت الأموات. الفقراء المتعبون المقهورون محرومون جنسيا وأنت فتاة ناضجة مثل كمثرى. كلا، هذا لا يليق بك يا سيدتي. سدوم مليئة بالسود والجرذان والشرطة والعاهرات وهارلم بفتاحي الفال والعرافات واليهود. ماذا تفعلين هنا في سدوم؟ مراقص الستريب تيز أغلقت أبوابها وأنت وحيدة فوق الرصيف. لا نريد أجانب. سدوم للسدوميين. كلنا سدوميون، شكرا لله. لا أجانب هنا. نحن نشتري الأجانب بالعملة الصعبة، ودائما على حساب دافعي الضرائب. كان فريدريش نيتشه هنا في مقهى حسن عجمي يلعب الدومينو مع بابلو بيكاسو. إنهما

---

* نص للشاعرة ايما لازاروس، مدون على قاعدة تمثال الحرية في نيويورك

يأتيان كل يوم، جالبين معهما مهرجين يسحبون وراءهم خنازيرهم وخيولهم وفيلتهم ويبيعون روث الفيلة إلى الموتى في أكياس نايلون علامة " الزهرة المقدسة " . نصبوا سيركهم في ساحة المدينة، حيث يوجد طوب أبو خزامة. هنا قدم توميشكا الذي لقبه الجمهور بالأمير عرضه الذي جعل الدماء تجمد في العروق. جعل أحد أسوده يهبط بالمظلة من الجو وهو على ظهره، مغنيا بصوته الطفولي العذب أغنية شعبية قديمة. ثم دفع خنزيرا زين عنقه بالميداليات والأوسمة إلى السير على الطريقة العسكرية للجنرالات في سدوم، وهو ينادي عليه بلغة سدومية مفككة: أنت يا خنزيري الجنرال! طفح كيل ذوي القبعات والبذلات والأحذية البيض وبلغ السيل زباهم، شاعرين بالمهانة. أوقفوا العرض وضربوا الخنزير الجنرال ضربا مبرحا ثم اقتادوا المهرجين، مع أسودهم وخيولهم وفيلتهم وخنازيرهم وقرودهم إلى المعتقل، يتبعهم نيتشه وبيكاسو في موكب فوق البساط الأحمر، حاملين على أكتافهم ديكة تصيح في كل مرة، معلنة الصباح.

عيون وآذان. ذكريات في الرأس. ربما، ربما، ربما.

قرون مرت علي وأنا أقطع الطريق ما بين شقتي في الباب الشرقي ومكتبي في الصرافية، قريبا من الجسر الذي يقطعه القطار، سائرا وراء فرجيل الذي كان يعرف الطرقات كلها. خمسون أو ستون أو سبعون قرنا. كان من الصعب عدها. فالزمن يمر، كلص يتسلل. غفوة ما، ثم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تستيقظ وتنظر في الساعة فوق المنضدة، قريبا من سريرك فتقفز مذعورا. لقد نمت ألف سنة.

كنت في مكتبي أشرب الشاي كما أفعل دائما وأدخن، بينما ظل فرجيل ينتظرني كعادته في الشارع، عندما دخل رئيس التحرير إلى غرفتي وقال لي:

– إقرأ هذا الموضوع وقل لي رأيك فيه!

– إنه موضوع سيء.

– هل قرأته؟

– لقد ألقيت نظرة عليه.

– هذا لا يكفي.

قلت منزعجا:

– حسنا سوف ألقي عليه نظرة أخرى.

لم يجد رئيس التحرير ما يقوله فغادر الغرفة مغتاظا.

أصوات ضاجة بعيدة، بعيدة مثل أنين يسمع من قعر بئر. أصابني الدوار فاتكأت على مقعدي. هو الرعد الذي كنت أسمعه في ليالي وحدتي وأشعر بالقلق. عاد رئيس التحرير إلى غرفتي:

– هل تسمع؟ المظاهرات تملأ الشارع.

قلت:

– يبدو أن شيئا ما يحدث. لقد رأيتهم في طريقي. كانوا في كل مكان.

ألقى رئيس التحرير بنفسه فوق أحد المقاعد:

– أيام عصيبة أخرى. ألا يكفي ما نحن فيه؟ اللعنة على هذه البلاد.

– ربما تغير شيء ما، لا بد من الانتظار.

بدأت ضجة الشارع تقترب. خرجت إلى الشرفة المطلة على الشارع. لحقني رئيس التحرير. وترك المحررون مكاتبهم وانضموا إلينا، قال أحدهم:

– إنهم بعيدون.

– من كان يتوقع ذلك؟

– سوف يغضب ملك الزمان كثيرا.

قلت:

– الفضول يقتلني، سوف أذهب لأرى ما يحدث هناك.

وخرجت إلى الشارع.

كان الناس يهرولون في جميع الاتجاهات. بدأت الانفجارات تدوي. رأيت الطائرات تخترق السماء وتنحدر، مطلقة صواريخها التي تئز في الهواء قبل أن تنفجر مرعدة هنا أو هناك. زخات رصاص من رشاشات اوتوماتيكية ومدافع تهدر بين الحين والآخر. فكرت: أكيد أنهم يقصفون وزارة الدفاع. لا بد أن شجارا نشب بينهم. لم يكن يهمني أي شيء. لم أكن طرفا في نزاعهم. فإذا كانوا يريدون أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يفتكوا ببعضهم فليفعلوا ذلك. كنت أعرف أن تاريخ سدوم هو تاريخ الدم دائما. دع الكلب ينهش الكلب من أجل العظمة الفاسدة. وفكرت في شهرزاد: إنها الآن وحيدة في الشقة. ربما خافت. كلا سوف تجد ما يشغلها. ماذا يهمها؟ في عاموراء أمس، كانت ليلة بالفعل، رغم أننا عدنا بخفي حنين. كان على الأمير الصغير أن يتصل بي هاتفيا على الأقل. لقد أفرطنا في الشرب وعدنا نجرجر أذيال الخيبة. طوال الطريق ظل يحدثني عن القمر، كما لو أنه ملك صرف باسمه. شاب خيالي. لا شك أن هناك صخورا ورمالا وحفرا ورياحا في القمر. وماذا في ذلك؟ سيان يا عزيزي الأمير الصغير أن تكون هنا أو هناك، سيان كل شيء. المدافع تهدر والصواريخ تئز. يا إلهي، لقد اعتقلوا الأمير توميشكا مع خيوله وفيلته وخنازيره. سوف يعذبونه بالتأكيد لأن خنزيرا ما سار مثل جنرال. هناك عيون وآذان في كل مكان والجواسيس يملأون شوارع بغداد، أولئك القتلة الذين يأتون ويختفون، تاركين لنا ذكرياتنا الحزينة. أين هو ملاكي المجنون فرجيل؟ لا بد أنه يتعقبني الآن. وصلت إلى باب المعظم. ومن هناك انسللت عبر الأزقة المليئة ببيوت الدعارة إلى الساحة الممتدة أمام وزارة الدفاع. كان ألوف من ذوي القبعات والبذلات والأحذية البيض يقفون، رافعين قبضاتهم وشاتمين طائرات الميغ التي كانت تقصف الجنود المحاصرين، بينما المدافع ترعد كلما اقتربت الطائرات منها. ومن الشوارع الأخرى بدأ المتظاهرون المسلحون، محتمين بالدبابات يطلقون

الرصاص. كان ثمة جرحى وقتلى، يتمددون لصق الجدران. وبدأ الجنود يرمون أسلحتهم ويفرون عبر السياج المحيط بالثكنات التي اشتعلت فيها النيران. وحلقت الطائرات على انخفاض، مطلقة النيران من مؤخراتها على المتظاهرين الذين أخذوا يتساقطون، تاركين بقعا من الدم فوق الرصيف. ووصلت ثلاث أو أربع دبابات، مخترقة شارع الرشيد، حاملة صورملك الزمان، بيد أنها ما كادت تتوقف حتى بدأت تطلق قذائفها على أبراج المدافع. فكرت: يا للحمق! ماذا أفعل هنا؟ كان يمكن أن أقتل عبثا. ماذا يهمني من هذه الحرب كلها؟ إنهم يخوضون الحرب لحسابهم الخاص. قررت أن أغادر المكان. لم أكن أريد أن أكون شهيدا. هنا رأيت فرجيل يهرول نحوي ويجرني من كتفي محتميا بالجدران حتى بلغنا مقهى البلدية الذي كان يطل على وزارة الدفاع من الجهة اليمنى، غير مصدق أنني أفلت من الموت هذه المرة أيضا. تماسكت وشعرت أن ثقلا ما قد أزيح عن صدري عندما رأيت الأمير الصغير يجلس على تخت في مواجهة عجوزين أعميين، بنظارات سود. تذكرت أن أحدا ما كان قد قال لي أن هوميروس والمعري قد سألا عني. لا بد أنهما هما. ولكن ماذا يفعلان في بغداد في مثل هذا اليوم العاصف؟ وهتف الأمير الصغير:

–ما تكاد تذكر الشيطان حتى يطل عليك، جارا وراءه ذيله.

ألقيت بنفسي لاهثا فوق التخت وناديت النادل، طالبا استكانا من الشاي:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– معذرة ما كنت أتوقع لقاءكم في مثل هذا اليوم. لقد نجوت باعجوبة. لا أعرف ماذا يحدث. يبدو أن ثمة انقلابا قد وقع.

أطلق الأمير الصغير ضحكة عالية:

– لقد انطلى الأمر عليك أيضا. أرجو ألا تكون قد ورطت نفسك. تمثيل في تمثيل.

قلت مستغربا:

– ولكنني رأيت الطائرات تحصد الناس.

قال فرجيل:

– وماذا في ذلك؟ هناك خسائر دائما.

وتدخل هوميروس:

– لا شيء يبدو لي حقيقيا في هذه المدينة. لكم تغيرت الأمور!

قال المعري، معترضا:

– إنها الأباطيل القديمة ذاتها. الأسماء وحدها تغيرت.

أطرق هوميروس برأسه ثم تمتم:

– ربما. هل رأيت كيف يتحدثون هنا عن رجلهم، هذا الذي يلقبونه بملك الزمان؟ إنهم لا يعرفون حتى اسمه.

قلت:

– إنه لا يملك اسما. لقد نسي حتى هو نفسه اسمه، مكتفيا بلقبه الذي لا يكون موجودا بدونه.

قال هوميروس حزينا:

– هل تعرف أنه طلب مني أن أخلده في ملحمة على غرار الالياذة والاوذيسة؟ المعتوه يعتبر نفسه ندا ليوليسيس، يا للعار!

ثم راح يردد مع نفسه:

في جزيرة ما رأيته يسكب دموعا ساخنة

في قصر الحورية كاليبسو التي احتجزته عنوة

فلم يعد قادرا على العودة إلى الوطن

إذ كان بدون أصحاب، بدون سفن بمجاذيف

يعبر بها أكتاف البحر العريضة. *

أصوات الانفجارات تهز المقهى. ثمة كثيرون يلعبون الطاولة أو الدومينو، غير آبهين بذوي القبعات والبذلات والأحذية البيض الذين كانوا يدخلون المقهى بين الفينة والأخرى، حاملين جرحاهم الذين كانوا يرمون بهم فوق التخوت الخلفية ويخرجون.

قال الأمير الصغير ساخرا:

– هؤلاء الأغبياء يتقنون أدوارهم حقا.

غمز فرجيل بعينه:

– لا تحدق فيهم هكذا. إن ذلك قد يثير أعصابهم.

ضحكت:

---

* هوميروس: الاوذيسة – النشيد الرابع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– لا تخف يا فرجيل، إنهم مشغولون الآن.

احتج فرجيل:

هراء. إنني أعرف زبانية الجحيم جيدا. لا أريد أن نتورط معهم. هذا هو كل ما في الأمر.

قال أبو العلاء المعري:

– أعتقد أن الشيخ فرجيل على حق. من الأفضل أن يتجنب المرء أشرار القوم. لقد فضلت العزلة دائما.

قال الأمير الصغير:

– ومع ذلك لم تنج من القيل والقال.

رد المعري مفكرا:

– ثمة فارق دائما بين ذوي العقل وذوي الجهل.

تدخل هوميروس:

– دعونا من هذه الأحاديث. أفضل أن أسمع شيئا عن شعرائكم.

نزع أبو العلاء المعري نظارته ومسح عينيه بأصابعه:

– لم يعد الشعر كما كان في أيامنا. لكل جيل ذوقه كما تعرف.

قال الأمير الصغير:

– هناك كثيرون ما زالوا يقلدونكم حتى الآن.

رد المعري وهو يضع نظارته فوق عينيه:

– هذا غريب حقا. بعد ألف عام يعيدون ما كنا قد قلناه في زماننا.

قلت:

– لقد تغير العالم. ولكن أرواحهم ما زالت سجينة الماضي.

قال هوميروس:

– هذا أمر مؤسف حقا.

ثم تنحنح قائلا:

– يبدو أنهما لن يأتيا.

ألقى فرجيل نظرة على ساعة يده:

– لقد تأخروا كثيرا.

سألت:

– هل تنتظرون أحدا؟

قال فرجيل:

– لقد ضرب الشيخان هوميروس وأبو العلاء موعدا مع جيمس جويس ودانتي. اتفقت معهما على اللقاء هنا في المقهى، ولكنهما تأخرا كثيرا.

قال أبو العلاء المعري:

– عذر الغائب معه.

قلت:

– ربما صعب عليهما الوصول وسط هذه المعارك الدائرة في المدينة. ربما لم يعد ممكنا عبور الجسر.

قال هوميروس:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– لا يهم، لا يهم. لقد قرأت ملحمة هذا الشاب جيمس جويس، عمل مدهش حقا. كنت أريد أن أهنئه على ذلك. لقد منح بطلي العزيز يوليسيس حياة جديدة. ربما اصطحبت يوليسيس نفسه معي في المرة القادمة ليشكره. أما صديقي أبو العلاء المعري فقد أراد أن يتحدث مع دانتي حول الكوميديا الالهية وعلاقتها برسالة الغفران. هناك نقاد كثيرون غير واثقين من أي شيء.

قال المعري:

– إنه شاعر كبير حقا. أشعر أن ثمة علاقة روحية تشدني إليه.

ضحك هوميروس:

– هكذا هم الكبار دائما. القمم العالية وحدها تطل على بعضها، أما الأحجار المرمية في الوديان فلا ترى سوى نفسها.

نهض المعري:

– أعتقد أن الوقت قد حان لنعود إلى ضفتنا البائسة. هذه الانفجارات المدوية ترهق أعصابي.

قلت:

– ولكن لا بد من أن نلتقي ثانية.

نهض هوميروس، ممسكا بيد المعري:

– بالتأكيد، بالتأكيد. سوف يدبر الشيخ فرجيل ذلك.

قال فرجيل، ناهضا:

– ينبغي أن أعود أنا الآخر. هناك كثيرون ينتظرونني. سوف أجيء

معكما.

وسارفرجيل، ممسكا بيد المعري الذي كان يمسك هو الآخر بيد هوميروس:

– مع السلامة.

– مع السلامة.

عندما وصلوا إلى المدخل، حيث يجلس صاحب المقهى أمام صندوق للنقود توقف فرجيل ليدفع الحساب، غير أن الأمير الصغير نادى من مكانه بصوت عال:

– واصل، الجماعة على حسابي يا اوسطه.

رفع الثلاثة أيديهم، شاكرين، متجهين في موكب واحد إلى الشارع الذي كانت تهزه الانفجارات المدوية.

قال الأمير الصغير:

– أشعر بالاختناق هنا. لقد أمضينا وقتا طويلا في هذا المقهى التافه.

وشعرت فجأة بالجوع:

– يمكننا أن نذهب لنأكل شيئا ما.

قال الأمير الصغير:

– هناك مطاعم كثيرة قريبة.

دفعنا حسابنا وخرجنا إلى الشارع. كانت الطائرات لا تزال تطلق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قذائفها والمدافع ترعد، بين الحين والآخر. كان الناس قد اختفوا. لم يكن ثمة سوى جنود يحملون الرشاشات وآخرون يشدون خرقا حمرا على أذرعهم. قلت للأمير الصغير الذي كان يسير إلى جانبي:

– لا أكاد أصدق أن الأمر يتعلق بتمثيلية. إنه يشبه انقلابا حقيقيا. أنت تعرف أنني شهدت كثيرا من الانقلابات الماضية.

– لقد أعلن ذلك ملك الزمان بنفسه. أين كنت؟

– ربما كان يمزح. أنت تعرف أنه رجل يحب تدبير المقالب.

– لا أعتقد ذلك.

كنا قد ابتلعنا الطعم ووقعنا في الفخ مثل فأرين ضالين. فقد أحاط بنا الجنود فجأة، شاهرين بنادقهم: قف. ماذا تفعلان هنا؟ رد الأمير الصغير ببراءة: اننا نسير في الشارع. ضحك أحد الجنود: ألا تعرفان أن هناك منعا للتجول؟ شعرت بالرعب: أي منع للتجول يا أخي؟ الأمر كله تمثيل في تمثيل. تلقيت ضربة من عقب بندقية، فسقطت على الأرض وتدفق الدم من أنفي. شتمني الجندي: أنتم تهزأون بكل شيء. سوف أريك الجحيم بعينه يا ابن العاهرة. وعندما انحنى الأمير الصغير فوقي ليعينني على النهوض تلقى هو الآخر ركلة جعلته يفقد توازنه وينهار على وجهه. أمسك الجنود بنا وأسندونا إلى الجدار. صرخ أحدهم: كانا يقاومان أمام وزارة الدفاع. ثم قال مخاطبا اياي: هيا، اعترف، ماذا كنتما تفعلان هناك؟ قلت ماسحا الدم بكمي: كنا في مقهى البلدية. تستطيع أن تتأكد من ذلك. ضحك أحد الجنود،

شاهرا بندقيته: لا بد أنكما كنتما تلعبان الشطرنج. رد الأمير الصغير ببراءة: كلا، كنا نتناقش في الشعر. تلقى لطمة من جندي بشوارب ريفية: يريد أن يقول لنا أنه مثقف! ثم أضاف: ما هو عملكما؟ قلت: وماذا يهمك من عملنا؟ ابتسم أحد الجنود بخبث: إنهما جاسوسان، أعرف ذلك. من الأفضل أن نعدمهما هنا. سوف نعاقب إذا لم نفعل ذلك.

ظهورنا مسندة إلى الجدار الرطب. ثمة جنود يشهرون بنادقهم في وجوهنا، على بعد خطوات منا. كانوا أربعة أو خمسة جنود شبان، مأخوذين بلعبة الموت، حتى لكأنهم أبطال في مسرحية. يا له من موت غريب ومفاجيء. قبل لحظات ما كنت أعرف أن ثمة موتا. أما الآن فإنني أراه واقفا أمامي. لقد باغتني مثل شبح يقف أمامك في الطريق وأنت تتنزه في حقل ما. أذكر الشمس والظل الذي كان يشطر الشارع. عيون متقدة، حاقدة تنظر في عيني. ماذا فعلت يا إلهي؟ في المعتقل كنت أفكر، لماذا يضعونني داخل زنزانة؟ هذه اللا عدالة التي تغطي التاريخ بالغبار كانت تقرفني. في المنفى امتلكت وقتا طويلا، طويلا جدا لأفكر في مهنة الجلاد. كلهم جلادون وقتلة. لقد احتقرتهم دائما، هؤلاء الذين يرتدون القبعات والبذلات والأحذية البيض. يعتقدون أنهم يمتلكون رسالة ما. خراء على رسالتهم الملطخة بالدم. سوف يلطخ دمي أيضا أيديهم. كنت أشعر بالغثيان كلما رأيتهم يسيرون في طوابير في الشوارع، وعلى أكتافهم رشاشاتهم،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حاملين الأعلام، ومغنين نشيدهم الوطني "ليحفظ الله لنا صاحب زماننا / جالسا أمام بحيرة التماسيح / على كرسيه الهزاز / فوق القنبلة الذرية". أي قدر هو هذا؟ كنت أقول لنفسي، أن تقضي عمرك معهم. كنت أمل بين الحين والآخر من رؤية وجوههم فأفر إلى الجبال التي يعتصم فيها العصاة. ثم أمل هناك أيضا فأعود ثانية إلى بغداد. في كل مرة كنت أعبر أربعة منحدرات أرضية وأمر بجنازات قروية في طريقها إلى المقبرة وأخترق اثنتي عشرة نقطة تفتيش عسكرية. كانت معي دائما رسائل توصية سرية، أخفيها في علبة ثقاب. رسائل مكتوبة على ورق السيجاير وملصقة بالشمع الأحمر على نهايات عيدان الثقاب. في المرة الأخيرة انحنيت وراء صخرة نابتة عندما رأيت الجنود المدججين بالمدافع الرشاشة يصعدون الجبل، جارين وراءهم بغالهم. وقد تصببت عرقا عندما رأيت بنادق اوتوماتيكية، تطل من خلف صخرة بعيدة. وعاليا فوقنا كانت الشمس تضيء سفح الجبل في الشمس الغاربة. انتظرت حتى هبط الظلام، ثم تسللت إلى الغابة الكثيفة. التقيت الموت ألف مرة، بيد أنني كنت أفلت دائما، حتى اعتقدت أنني رجل غير قابل للموت. وها أنذا أقف مرة أخرى أمام جنود يصوبون فوهات بنادقهم إلى صدري وأصابعهم على الزناد. الموت؟ إنه لا يبدو شبيها بالموت، وبدا المنظر فكاهيا بعض الشيء. هذا ليس عدلا. لقد فكرت دائما أن أموت بجو احتفالي بعض الشيء. موسيقى باخ مثلا. تنظر عبر النافذة وترى الشمس على قمم الأشجار.

أن تفكر في قصيدة ما، تبزغ في رأسك وأنت تموت. قصيدة لن يعرفها أحد غيرك، لأنك ستأخذها معك. أوشكت أن أضحك. ليس هذا هو الوقت الصحيح لتتذكر قصائدك المتروكة منذ أعوام في الأدراج. قصيدة غامضة. أقرأها على هؤلاء الجنود واطلب رأيهم فيها. ليس في الأمر ما يضير. ولكنهم سوف يسخرون منك. مثقف، مستورد من أوروبا. ربما كان من الأفضل أن أسليهم بأغنية ريفية أو خطبة.

أيها الإخوة، يا بداة الصحراء أما زلتم في غيكم، تعيشون حياة الجاهلية الأولى؟ هو ذا الأمير الصغير يقف إلى جانبي ولا يقول شيئا. هيا يا صديقي الق خطبة ما وانقذنا. شهرزاد تنتظرني في البيت، صديقتي الشابة السعيدة. كان ينبغي أن أضاجعها على الأقل، قبل أن أسقط شهيدا هنا في الجحيم. ربما فتح الأمير الصغير فمه المغلق. أحسنت. هكذا تكون الخطبة، يا سيدي. أشكرك على كل حال من سحيل ومبرم. لا يتعلق الأمر بسيد سحرة المملكة، ملك الزمان، فهو يملك طائرة بأربعة مقاعد، عليها شعار الكوكلوكس كلان. صلبان محترقة على ضفاف دجلة. لا بد من أن ننصب أولا فخا للفرسان السود. اللصوص في كل مكان. نحن لا نحمل الأسلحة لنصطاد بها الأرانب وإنما لنثأر لأنفسنا. أسكت أيها الأمير الصغير. أريد أن أبول. لا ينبغي لي أن أموت قبل أن أ بول. تذكرت أن دستويفسكي طلب هو أيضا أن يبول قبل أن يضعوا الحبل في عنقه. عندما ذهب إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المرحاض أغلق الباب وراءه، رافضا الخروج. ولماذا يخرج؟ لا شيء ينتظره سوى الموت. ظل معتصما في المرحاض حتى وصل رسول القيصر، حاملا معه كتاب العفو.

قلت فجأة:

أريد أن أبول.

انفجر الجنود ضاحكين. قال الجندي ذو الشوارب الريفية:

– تستطيع أن تبول بعد الموت.

أصررت:

– بل قبل ذلك. الموتى لا يبولون.

قال أحد الجنود:

– حسنا، تستطيع أن تبول هنا في الشارع على الجدار.

قال الأمير الصغير:

– أريد أن أبول أنا الآخر.

قال الجندي ذو الشوارب الريفية:

– ممنوع. لا بول ولا هم يحزنون.

في تلك اللحظة وإذ كان الجنود يشهرون بنادقهم لإطلاق الرصاص علينا توقفت سيارة جيب وهبط منها ضابط شاب. شهر مسدسه في وجه الجنود، آمرا:

– هيا اذهبوا، سوف آخذهم بنفسي إلى المعتقل.

وصعدنا معه في سيارته التي توقفت بعد قليل أمام مركز للشرطة

في البتاويين. تركنا هناك وذهب دون أن يقول شيئا. وشعرت أنني قد أفلت من الموت هذه المرة أيضا. يا للسعادة!

أعرف أن أحدا ما قد وشى بنا ونحن نسير في الشارع. ربما كانوا يراقبونني منذ زمن طويل، بدون أن أفطن إلى ذلك. هكذا هو أنت دائما يا آدم، كنت أقول لنفسي، توقع الأسوأ. وإذا ما نجوت تكون قد ربحت حياتك، كمن عثر على جرة ذهب في حديقة بيته. هارب والجبال تحت رجليك، قنفذ متكور على نفسه. كل ذلك لم يعد مهما الآن، فقد انتهيت الى المعتقل مثل كل المرات السابقة. سيكون أمامك الكثير من الوقت لتتأمل ما لم تتأمله من قبل. ولسوف تعتاد الاحتيال على الزمن، منكفئا مقذوفا في صحراء مخيلتك، كتعويض عن خسائرك التي لا تعد. هناك في بيدائك ستكون لك مملكة لا ينازعك عليها أحد، مملكة أنت امبراطورها الوحيد. مملكة سراب، سوى أنها مملكتك، وهذا يعني الكثير. قديما كنت تقتنص وحدتك فتقرفص، متكئا على جدار ما وترحل إلى قلعة، بعيدة، غارقة في الضباب، مرتفعة داخل غابة أو ربما على ساحل بحر، يعدو فوق رماله الذهبية حصان وكلب. كنت تغار على وحدتك من الآخرين وتخبئها عن أعينهم، معيدا صنع العالم على هواك. تلك السرية المسكونة بالأشباح، صمت يوسف في قعر البئر. هكذا غويت أن تكون روحا هائمة في الكون. ثمة ما يبهر في الأمر، قانون آخر لكون آخر. كان ذلك يمنحك شعورا لم تعرفه من قبل، بيد أنه كان شعورا مخادعا، إذ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رفضت أن تعترف كم كنت مريضا. هل كان بامكانك أن تعترف به، حيث المرض وحده سبيلك لإنقاذ روحك؟ سوف يأتي المرض ثانية، ليس اليوم وليس بعد اسبوع، ولكنه آت لا محالة. سوف يأتيك حيث لا تنتظره، طارحا بك أرضا، مثل ثور هائج، ينخر فوق التراب. كنت تعرف أنك سوف تستسلم في آخر الأمر. ربما قاومت قليلا، بحكم العادة. ربما اصطنعت الوقار مثل قناع تلصقه على وجهك، لتكون جديرا بايمان الخطاة الأعمى بك: الأرملة التي ذهب ابنها الى الحرب ولم يعد، الأسير المشدود ألى شجرة، ويونس في جوف الحوت. إرفع رأسك يا آدم وكن وفيا لشمسك البعيدة.

أقف جنب الأمير الصغير أمام شرطي برتبة مفوض، يجلس وراء منضدة في غرفة تمتلىء بشرطيين ومخبرين، يدخلون ويخرجون. يرفع المفوض رأسه:

– اسمك؟

أقول:

– آدم.

– وماذا بعد؟ الاسم الثلاثي!

– آدم آدم آدم.

يتوقف المفوض:

– هل تسخر منا؟

أجيب ملاطفا:

– أبدا. هذه هي الحقيقة. لا أعرف إسما آخر لي.

يقول المفوض متأملا:

هذا طريف حقا؟ وهل ان اسم زوجتك حواء؟

أبتسم:

– تماما. كنت أعرف أنك ستخمنه.

يمتعض المفوض:

– هل تريد أن تقول لي أنك تنحدر من نسل سيدنا آدم؟

أقول بخفة:

– أعتقد ذلك. لا بد أنك من نسل آدم أيضا.

يرد المفوض مستهزئا:

– كنت أعتقد أنك من نسل القردة. هل نظرت إلى وجهك في المرآة؟

أقول ببرود:

– هذا ما يدعيه داروين عنا جميعا. ولكن لا ينبغي أن تصدقه يا سيدي المفوض، فلو كان ما يقوله صحيحا لجلس على كرسيك الآن قرد بنجمة على كتفه.

يحدق المفوض مليا في وجهي:

– هل تشتمني أيها الوغد؟

أقول معتذرا:

– كنت أشير فقط إلى نظرية علمية. هذا ما يقوله داروين. ربما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنت تعرفه.

يبتسم المفوض:

– كيف لا أعرفه؟ أبله العائلة! لقد أفحمه ملك الزمان من وراء ستارة ذات مرة في مناظرة تلفزيونية. سأله ببساطة: إذا كان الإنسان قد انحدر من القرد فلماذا ظلت القردة الأخرى قردة حتى الآن؟

أقول:

– هذا سؤال خطير حقا.

يستطرد المفوض شارحا:

– لأن القردة لا تملك روحا أيها القرد.

ثم يضيف مركزا نظراته علي:

– والآن قل لنا يا آدم ما هو عملك؟

أقول بشيء من التباهي:

– إنني شاعر.

يستغرب المفوض:

– شاعر؟ إنني لم أرك في التلفزيون مع الشعراء الذين يمدحون ملك الزمان.

أقول:

– كنت في الخارج أمضيت فترة طويلة بعيدا عن الوطن.

– حسنا، أين تعمل؟

– في مجلة " الأزمنة الحديثة ".

يرفع المفوض رأسه:

هذه مجلة مشبوهة تماما، إننا نعرف صاحبها جان بول سارتر جيدا. يدعي الوجودية في حين انه جاسوس في وكالة مخابرات الشيطان. سوف نصطاده هو الآخر.

ثم يوجه كلامه إلى الأمير الصغير:

– وأنت ما اسمك يا أفندي؟

يقول الأمير الصغير مرتبكا:

– الأمير الصغير.

يجفل المفوض في مكانه:

– أمير صغير! ولماذالا تكون أميرا كبيرا؟ لقد انتهى عهد الأمراء منذ زمن طويل، ألا تعرف ذلك؟

حسنا ما هو عملك؟

يرد الأمير الصغير:

– رائد فضاء، سيدي.

يمتعض المفوض وقد فترت همته:

– قل لي ما الذي تبحث عنه في الفضاء إذا كنت رائد فضاء حقا؟ إن ذلك مثير للشبهة أيضا.

يحاول الأمير الصغير تبديد شكوكه:

– كل ما في الأمر هو أننا نسافر بين النجوم. ليس هناك أي شيء آخر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقول المفوض وقد ازدادت شكوكه:

– أعتقد أنكم تصعدون إلى السماء للتجسس على أخبار الله وما يدور في عرشه. وعلى أي حال سوف نرى إن كنتم جواسيس أم لا. هناك وسائل كثيرة للتأكد من أقوالكم.

ثم ينادى شرطيا، كان يقف أمام الباب ويقول له:

– خذهما إلى السرداب.

يدفعنا الشرطي أمامه، سائرا بنا إلى السرداب الذي تطل نوافذه على زقاق يتفرع من الشارع العام ثم يطلب من شرطي آخر يجلس على كرسي ويدخن أن يفتح الباب:

– عندك ضيوف يا مالك. هيا افتح باب سردابك.

يفتح مالك الباب وينادي على المعتقلين داخل سردابه:

– عندنا ضيوف جدد يا شباب. لماذا لم أعد أسمع أصواتكم؟ هيا غنوا.

المعتقلون الذين تجمعوا أمام الباب يجأرون بصوت موحد:

عاش ملك الزمان

عاش، عاش!

يدفعنا مالك بيديه داخل السرداب الذي كان المرء يهبط إليه بثلاثة أدراج، قائلا:

– هذه جنة مالك، فادخلوها بسلام آمنين.

يسأل أحد المعتقلين من داخل السرداب:

– ضيوف عابرون أم ضيوف شرف؟

يجيب مالك:

– ألا ترى أيها الغبي أنهم ضيوف شرف في طريقهم إلى الجنة؟

ما نكاد نبلغ قعر السرداب الذي كان ممتلئا بمعتقلين يجلسون متكئين على الجدران، حتى يتقدم منا ثلاثة رياضيين عمالقة، لا يرتدون سوى السراويل الداخلية، بوشوم أسود وسيوف فوق أذرعهم، ويصافحونا بحرارة. يقول أحدهم:

– هل أنتما مستعدان؟

أسأل وقد داخلني الشك:

– ماذا تعني؟

يقول الرجل:

– إننا نرحب بكما في الحلبة.

أشعر فجأة أنني أطير ومعي الأمير الصغير في الفراغ. ليس ثمة فرصة حتى للمقاومة. أرى السرداب ينحدر بي أكثر فأكثر مع كل ركلة أتلقاها ونيران تشتعل في جسدي.

يفتح مالك الباب ويدخل، صائحا بأعلى صوته:

– هذا يكفي. لقد أسأتم إلى ضيوفي يا أبناء الأفاعي.

ثم يدفع بنا أمامه إلى خارج السرداب، معتذرا:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– كل الذاهبين إلى الجنة يمرون أولا بهذا المطهر الذي يمتلىء باللصوص والقتلة والقوادين. إنها الأوامر، ماذا نعمل؟

يأتي شرطيان آخران، يضعان الأغلال في أيدينا ثم يقتادانا إلى سيارة جيب عسكرية، تنطلق بنا حالما نصعد إليها. خيط من الدم يظلل بغداد وعنكبوت ينسج شباكه في ليل طويل. طرق إسفلت وأشجار. وحش يعوي وذكريات تتجدد دائما.

لا أعرف كم من الوقت مر علينا في ذلك المعسكر الذي كان يقع على حافة مدينة الصرائف. ربما أمضينا أسبوعا هناك. لقد نسيت ذلك. كان صعبا علينا أن نتذكر الأيام. فقد كان المعتقلون يقيسون الزمن بعدد المرات التي يؤخذون فيها إلى التحقيق معهم، حيث كانوا يعلقون من أكتافهم بمراوح سقفية، تظل تدور بهم إلى ما كان يبدو بلا نهاية. ثمة تسع أو عشر قاعات طويلة، ربما كانت ذات يوم مأوى للدبابات، منفصلة عن بعضها محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة، يقف وراءه جنود، يتنكبون البنادق. وفي الفترات التي يسمحون لنا فيها بمغادرة القاعات كنا نقف بمحاذاة السياج ونحدق في مدينة الصرائف القريبة، سامعين خوار الجواميس والأبقار وثغاء الأغنام وصياح الديكة. ذات مرة شاهدت غزوة، وقعت أمام عيني هناك. طابور طويل من الرجال والنساء والأطفال كانوا يرفعون عصيهم وسكاكينهم وأعلامهم في أيديهم، مهوسين بأعلى أصواتهم متوجهين

إلى الخصوم الذين ربما كانوا ينتظرونهم في الزقاق الآخر. ما كان في إمكاني أن أخرج لأسجل وقائع هذه الحرب. فقد اختفوا وراء بيوت الطين والصفيح وابتلعهم الغبار. ومن الجهة اليمنى كان يمكن للمرء أن يرى السيارات القادمة من المدن الأخرى أو الذاهبة إليها. في المساءات كنت أتكيء على الجدار الخارجي لقاعاتنا وأحدق مأخوذا بمصابيحها البعيدة، يعشي ضوؤها البصر، مفكرا في أسفار حياتي الكثيرة.

أذكر أنني عندما كنت في الجنة قبل أن تمتلىء بالبشر، جاءني ملاك ثقيل الدم، كان يعتبر نفسه مسؤولا، هكذا اعتباطا، عن الغابة التي أتجول في ممراتها عصرا وقال لي بطريقة شائنة: ألا تعرف أن التدخين ممنوع في هذه الغابة؟ والأكثر من ذلك أنك تتبول على جذوع الأشجار. صعد الدم إلى رأسي فأمسكت به من عنقه وقلت له: «إسمع، أيها الملاك الغبي، إن الله هو الذي أرسلني إلى هذه الغابة، وليس أنت. فإذا كنت منزعجا من وجودي هنا فاذهب إلى الجحيم». راح يصرخ ويشتم: «إنني الحارس هنا. سوف أقدم شكوى ضدك. هناك أصول وقواعد في كل مكان. أنت لا تحترم أحدا.» ثم رفرف بجناحيه، مبتعدا عني، وهو يشتم ويلعن.

في الحقيقة انني اتخذت من هذه المشادة ذريعة لأرحل بعيدا عن تلك الغابة المقدسة، قاصدا غابات وحدائق ومتنزهات أخرى، تغطي قارات الجنة الكثيرة. فقد أصابني السأم والملل من طول مكوثي في مكان واحد واشتاقت نفسي لاكتشاف مفاتن الفردوس التي لم أكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد رأيت سوى القليل منها. وهكذا حملت عصاي، منحدرا نحو وادي الغزلان الذي انفتح أمامي، ثملا برائحة الربيع في التراب، حيث موسيقى تعزف في رأسي. آه، أية ذكريات، تنفجر الآن من الماضي أمام عيني، أية أحلام انتهت وأي هوى نسيته! ألف جبل صعدته، ألف نهر عبرته، ألف قارة مشيتها، ألف صحراء اخترقتها. وها أنذا أجلس الآن في معسكر اعتقال، أنتظر جلادي لينادوا علي في الليل. ماذا يمكن أن أقول لهم؟ لولا حواء التي جعلتني أقضم من تلك التفاحة الفاسدة لبقيت حتى اليوم هناك. قلت لها: « يا امرأة، يمكننا أن نأكل فاكهة أخرى. صدقيني، ان ذلك أفضل ». ولكنها جاءت وأسندت صدرها الى صدري وقبلتني مثل عاشقة مراهقة وبكت، فقلت لها: « حسنا لا تبكي، عندما أحتضنك لا تكون هناك فاكهة محرمة أبدا ». فاقتادتني من يدي إلى شجرة التفاح التي أكلنا من ثمراتها حتى أصبنا بالتخمة. ثم جاء الشيطان وصافحنا بحرارة، ضاربا لنا موعدا للقاء فوق الأرض. ماذا يهم كل ذلك الآن؟

في معسكر الاعتقال لم ينادوا علي قط. ربما كنت الرقم الصفر في نظرهم. أو ربما لأن أحدا ما تعمد إغفالي. كنا نرتجف مرات كل يوم، حيث كانوا يأتون إلينا برجال أخفوا رؤوسهم داخل أكياس سود، تطل من شقوقها عيونهم. كانوا يمرون علينا، محدقين في وجوهنا واحدا واحدا، باحثين عن أحد ما. لم أكن أعرف أحدا يمكن أن يشي بي سوى يهوذا. فإذا كان قد قبل معلمه ذات يوم وسلمه إلى قتلته، فما

الذي سيمنعه من أن يشير بإصبعه إلي، قائلا: هذا هو آدم، كان يشتم دائما ملك الزمان؟ ولكن ربما لم يكن يهوذا، كما يروون عنه. فأنا لا أثق كثيرا بالتاريخ. إنه مليء بالأكاذيب والأباطيل والاختلاقات، مثل كل حياة تتحول إلى ماض.

لم يكن يهوذا هو من يخيفني في الحقيقة وإنما ذلك الطالب السابق راسكولينكوف الذي لم يكن يقتل إلا بالفأس. كنت أعرف أنهم قد قبضوا عليه هو الآخر وأنه في المعتقل مثلي. لقد التقيته مرة واحدة في الظلام، ولكن قد لا يكون صعبا عليه التعرف إلي. ورغم أن دستويفسكي كان قد طمأنني ذات مرة بأنه سيبحث له عن ضحية أخرى يقتلها فإنني لم أنس قط مطاردته لي من شارع الى شارع. كنت واثقا من أنه سوف يجهز علي إذا ما قادتني الأقدار اليه. فإذا كان قد فكر في قتلي ذات مرة فإنه قد يتذكرني ثانية في نوبة جنون ويهوي على رأسي بالفأس.

في اليوم السابع من وجودنا في معسكر الاعتقال (هل كان اليوم السابع؟ ربما إذا حسبنا اليوم الذي اعتقلنا فيه) دخل أحد الجنود ووقف أمام الباب مناديا: «هيا يا آدم، احمل أمتعتك واخرج!» فخرجت، مخلفا ورائي صديقي الأمير الصغير غير عارف إن كنت ذاهبا إلى المشنقة أم عائدا إلى بيتي.

قال لي الجندي الذي ظل يبتسم ونحن في طريقنا إلى غرفة المدير،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مطمئنا:

– لا تخف. أعتقد أنهم سوف يطلقون سراحك. هناك أشخاص مهمون جاؤوا يسألون عنك.

– أشخاص مهمون؟ إنني لا أعرف أشخاصا مهمين.

– إنهم من ذوي القمصان البيض. لقد رأيت المدير نفسه ينحني أمامهم.

طرق الجندي الباب قبل الدخول. ما كاد المدير يراني حتى نهض من مقعده وتوجه إلى معانقا:

– يا إلهي، كيف يرتكبون مثل هذا الخطأ معك؟ لماذا لم تحاول الاتصال بي؟ أقسم أنني لم أعرف بوجودك عندنا إلا الآن.

قلت متعمدا التمثيل:

– لا بأس، لا بأس. لن يموت المرء بسبب أسبوع في السجن.

انتبهت إلى جنرال يقف مع شخصين آخرين ويبتسم لي. قال المدير بمودة:

– لقد طلبك ملك الزمان بنفسه.

كانت تلك مفاجأة لم أتوقعها قط. فقد ظللت أعتقد حتى تلك اللحظة أن هذا الرجل الذي يلقب نفسه بملك الزمان ليس سوى وهم أو ربما قناع لكائن لم يوجد قط، اختلقته مخيلة مغرمة بالأعاجيب.

قلت مندهشا:

– ملك الزمان! لم أكن أعتقد أنه يعرفني.

قال المدير موضحا:

– صاحب الزمان يعرف الجميع.

تدخل الجنرال، مقاطعا:

– أعتقد أنه ينبغي علينا أن نذهب.

قلت، مستغلا الفرصة:

– قبل أن نذهب أريد أن يفرج أيضا عن صديقي الأمير الصغير الذي اعتقل معي ونحن نسير في الشارع.

حدق مدير معسكر الاعتقال في الرجال الثلاثة، كما لو أنه يطلب العون منهم في ما ينبغي أن يفعله أو يقوله.

قال الجنرال، مخاطبا المدير:

– بالطبع، بالطبع. أطلق سراحه الآن، ودع سيارة توصله إلى البيت.

انفرجت أسارير مدير معسكر الاعتقال:

– سوف أوصله بسيارتي الخاصة، اطمئن.

خرجت مع الرجال الثلاثة، يتبعنا المدير إلى الساحة الخلفية لمعسكر الاعتقال، حيث كانت طائرة هليكوبتر تجثم في انتظارنا.

التزم الجنرال الصمت داخل الطائرة، متجنبا النظر إلى وجهي الرجلين الآخرين اللذين ظلا صامتين هما أيضا حتى حسبت أنهما لا يملكان لسانا. كانا شابين، يتدفقان قوة ويتشابهان في كل شيء مثل شقيقين. شعرت أن الجنرال نفسه يتجنب الحديث معي بحضورهما.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت ثمة رغبة عارمة، تعتمل في داخلي، أن أقول لهم انني لا أشعر بأية سعادة في رؤية ملك الزمان ولكنني كتمتها تحت ستار من اللامبالاة. حلقت طائرة الهليكوبتر، مرتفعة في الجو، حيث رأيت من النافذة مدير المعسكر يقف وسط الساحة ويلوح بيده. استدارت الطائرة فوق القاعات الطويلة التي كان يتكدس فيها المعتقلون قبل أن تنطلق باتجاه المدينة، فهمست في داخلي: وداعا، أيها الرفاق!

حلقت طائرة الهليكوبتر فوق المدينة التي كنت أعرف كل شارع وعمارة فيها. هذا هو شارع السعدون الذي لا تخطئه العين، هذا هو النهر الذي يفصل ضفتنا عن الضفة الأخرى. وهذا هو شارع الرشيد بأزقته الكثيرة التي تتفرع عنه. كان الحمالون الإيرانيون والأكراد يحملون صناديق الشاي وأكياس السكر فوق ظهورهم في سوق الشورجة. وفي الزقاق الآخر كان الصفارون يجلسون ويطرقون أوانيهم النحاسية. وفي سوق الذهب كان الصاغة يساومون نساء بعباءات سود، يشترين الحلي. هذه هي مدينة جبل قاف التي كان في إمكاني أن أشم رائحتها حتى وأنا في الجو. ولكن لماذا لا تتجه طائرتنا إلى قصر التماسيح، حيث يقيم ملك الزمان؟ إننا نحلق في الاتجاه المعاكس. لا بد أنهم كذبوا علي. كلا، لا يمكن أن يكذبوا علي. الخوف والقلق! يا إلهي، لماذا هذا المجهول الذي يصدمنا دائما؟ هذه الحياة التي تقتات على دم الرعب؟ انتظر، انتظر يا آدم، كما انتظرت

دائما، ولا تجأر بالشكوى. إرم بنفسك في العاصفة وانتظر الزلزال. فما يحدث يحدث بحكم العادة. وهذا كل ما في الأمر.

قلت مخاطبا الجنرال الذي كان يجلس لصقي:

– لا يبدو أننا متجهون إلى قصر التماسيح.

أضاءت الوجه المتغضن ابتسامة مفتعلة:

– لا تقلق يا آدم، كن صبورا.

– من حقي أن أعرف المكان الذي نتوجه إليه. لماذا كل هذه السرية؟

– بدون سرية لا تكون هناك إثارة.

كانت طائرة الهليكوبتر قد تركت جبل قاف وراءها وبدأت الصحراء. هناك في اللحظة التي اختفى فيها كل أثر للمدينة دخلنا ممرا جويا مظلما، بحيث ما عاد في امكاني أن أرى أي شيء خارج الطائرة. قال الجنرال مطمئنا:

– إننا نعبر الآن نفق الظلمات.

كان النفق الذي اجتازته الطائرة أشبه ما يكون بالأبدية، رغم أننا اجتزناه في أربع أو خمس دقائق فقط. ثم كنا داخل الضوء ثانية. ومن بعيد بزغت مدينة، تتلألأ قبابها في الشمس الغامرة وسط البحر. كانت تشبه بغداد في كل شيء، ولكنها لم تكن هي. كل شيء يبدو جديدا فيها. وخيل إلي أنها خالية من الناس. أمعنت النظر. إنها خالية بالفعل. لم يكن ثمة سوى عمال قليلين هنا أو هناك، يتحركون داخل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مساحات مفتوحة. قال الجنرال، محدقا في وجهي:

– هذه مدينة جبل قاف الجديدة.

قلت مستغربا:

– لم أكن أعرف أن هناك مدينة جبل قاف أخرى. هذا أمر مثير حقا.

وضع الجنرال يده على كتفي مواسيا:

– كثيرون هم الذين لا يعرفون ذلك.

قلت:

– يا ألهي، من يمكن أن يصدق ذلك!

انحدرت طائرة الهليكوبتر بنا نحو مرج أخضر مفتوح، كما ينحدر المرء إلى أرض حلم، تنهض في الذاكرة. هبط الجنرال فوق العشب، فتبعته، محاولا اللحاق به، بينما كانت طائرة الهليكوبتر ترتفع، مبتعدة. واقتربنا من قلعة تاريخية، كان الحراس يطلون برؤوسهم من وراء أسوارها. وفكرت أنها ربما كانت نفس القلعة التي رأيتها ذات مرة في الصحراء. لم أكن متأكدا تماما. ربما، ربما، ربما.

ها هي ذي البوابة السوداء تنفتح أمامنا، حيث جندي أسود ينفخ في بوقه، محدقا إلى الأمام دائما بعينين مفتوحتين، ونسير فوق بساط أحمر، طويل، يقف في نهايته من جعل قلبي يخفق اضطرابا. هوذا عدوي القديم الذي لا تخطئه العين، عدوي الأول يقف ويبتسم بمكر. لم أكن قد التقيته منذ زمن طويل، ولكن صورته ظلت عالقة في

ذهني طوال آلاف السنين التي أمضيتها هنا فوق الأرض. ترى ما الذي يريده مني هذه المرة؟ ربما فخ جديد، يريد أن يوقعني فيه.

ما الذي يعتقده هذا اللعين؟ أتراه يريد أن يشتري روحي، كما فعل ذات مرة مع الدكتور فاوست؟ شكرا لله، إنني أعرفه. هذا يجعلني ندا له على الأقل. وتقدم، فاتحا ذراعيه واحتضنني بمودة، وهو يردد:

– أرجو ألا تكون غاضبا علي حتى الآن يا آدم!

قلت مداهنا:

– مع الزمن تندمل الجروح.

قال الجنرال الذي رافقني، ضاحكا:

– هكذا يكون لقاء الأصدقاء.

رد إبليس، ممازحا:

– كنا أفضل صديقين، إلا أن أحدا ما أوقع بيننا وأوغر صدره ضدي.

قلت:

– أعترف أنني كنت ساذجا حينذاك. كان من السهل عليك أن تخدعني.

قال إبليس ضاحكا، وهو يبتعد بي عن الجنرال الذي رافقني:

– صدقني أنني فعلت ذلك عن حب. لقد أحزنني أن أراك مع زوجتك المصون تهيمان على وجهيكما في الجنة مثل أي بهيمتين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مفرغتين من العاطفة. ما قيمة الجنة نفسها إذا لم يكن ثمة تهديد بخسارتها؟ ما قيمة الحياة إذا لم يكن ثمة موت دائما؟ أنت تعرف أن الله هو الذي أراد لقصتنا أن تحدث بالطريقة التي حدثت بها. هل تعتقد أنني كنت قادرا على أن أعصي أوامره لو لم يرد هو نفسه ذلك؟ تلك حكايات، يرددها الأغبياء والسذج. ما كان ينبغي لك أن تصدقها. وإذا كانت ثمة ضحية في القصة كلها فهي أنا. لقد ضحيت بمركزي في السماء من أجل أن أضفي على حياتك معناها فوق الأرض. أي أحمق، يقبل أن يعقد رهانا مع الله، وهو واثق من خسارته في النهاية؟ أجل، لقد فعلت ذلك من أجل أن أجعل منك رجلا. هل أستحق أن ألعن، بسبب ذلك؟

كان ما قاله إبليس مؤثرا، بيد أنني قررت أن أقاوم تأثيره السحري علي. ربما كانت ثمة حكمة في ما يقوله، بيد أنها حكمة تمتلك مجازفتها الخاصة بها. صمت حتى لا يكشف ما يعتمل في داخلي. سألني برقة:

– ما الذي جرى لحواء؟ إنني لم أرها منذ زمن طويل.

أجبت حزينا:

– لقد ماتت قبل آلاف السنين. افترسها الذئب ذات ليلة، وهي خارجة من كهف، كنا نقيم فيه على سفح جبل أرارات.

قال إبليس:

– ليرحمها الله. لقد كانت امرأة لا تنسى.

– لقد نسيتها. هكذا هي الحياة.

– هناك نساء كثيرات الآن في العالم. لقد أصبحن أكثر فتنة وجمالا.

– ولكن القلب شاخ يا إبليس.

– لا تقل ذلك لي، إنني أعرفك يا آدم.

ثم أضاف ضاحكا:

– يمكنني أن أمد يد العون إليك إذا أردت. أعرف نساء ساحرات كثيرات. سوف يسرهن أن يتعرفن عليك.

قلت دون أن يزاولني الشك في نواياه:

– آه حقا، لنترك ذلك للصدف. ثمة أمور أخرى تشغل بالي الآن.

اعتذر إبليس:

– يؤسفني ما حدث لك ولصديقك الأمير الصغير. تعرف أنه ما من شيء يحدث هنا بدون موافقة ملك الزمان. لقد احتجت إلى بعض الوقت حتى أجد الفرصة المناسبة لأحدثه عنك.

قلت: إذن كنت تعرف بالأمر منذ البداية.

قال إبليس:

بالطبع، ما من أمر يحدث هنا بدون معرفتي.

تساءلت:

– ولكن ما الذي يريده ملك الزمان مني؟ لا تقل لي إنه يريد هو الآخر أن يعتذر عما بدر من جنوده تجاهي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رد إبليس بجد :

ملك الزمان لا يعتذر أبدا من أحد . كل ما في الأمر هو أنه يريد التعرف عليك .

قلت :

– أخشى أنك تريد توريطي ثانية .

– أنت تسيء الظن بي مرة أخرى . تذكر أنني أنقذتك من موت محتم . أنت لا تعرف ذلك . هل تذكر الضابط الذي أنقذك في آخر لحظة من أيدي الجنود الذين كادوا يطلقون النار عليك؟ ذلك الضابط كان صديقك القديم إبليس نفسه . لكنك كنت مضطربا فلم تحدق حتى في وجهه .

قلت مصرا :

– سوف أرفض أي طلب له .

ابتسم إبليس :

– أنت حر يا آدم . لقد كنت حرا دائما . إن هذا بالذات ما يجذبني إليك .

ثم أمسكني من يدي واقتادني إلى الداخل :

– حسنا، لندخل . لا ينبغي أن نترك ملك الزمان ينتظرنا طويلا .

رجل محشو بالقش مثل فزاعة في حقل . كان يمكن أن تصلب بسكين فوق صدره حتى يتناثر القش فوق الأرض . لا أعتقد أنه كائن

حقيقي. له طريقة غريبة في الحديث. إنه يلوي فمه كمن يخترع الكلام. جلس فوق عرشه ووضع رجلا فوق رجل، ممسكا غليونه بطرف فمه، محدقا في ما وراء كتفي. لم يحدق أبدا في عيني. ربما كان خائفا أن أقهر نظرته. عندما مد يده ليصافحني شعرت برخاوته. يد أنثى أكثر مما هي يد رجل. كنت أتوقع أن أجد رجلا، يرتدي بذلة جنرال، لكثرة ما شن من الحروب. يا إلهي، كان يرتدي ثوبا نسائيا أصفر من الحرير، ملقيا فوق كتفه شالا رقيقا أحمر، حتى لكأنه جارية في بلاط هارون الرشيد! أوشكت أن أنفجر ضاحكا. لا بد أن إبليس هو الذي أغراه في أن يفعل ذلك بنفسه. ألقيت نظرة على إبليس الذي كان يجلس لصقي، شاربا القهوة، صامتا فبدا أنه قرأ أفكاري، إذ صدمني بنظرة كئيبة، كما لو أنه يريد أن يقول لي: لا يد لي في ذلك. ظل صامتا في البداية، مقلبا دفترا ما في يده، فظللنا ننتظر أن يرفع رأسه ويفتح فمه. وأخيرا رفع رأسه وقال باستعلاء:

– لقد حدثني ملاكنا الطيب عنك وامتدحك. إنني أثق في رجاحة رأيه، فقد أثبت دائما أنه أهل للثقة. لا شيء أهم من الولاء في زمننا. الولاء أساس كل شيء في الحياة.

صمت. كان يتوقع أن أقول شيئا، غير أن فمي ظل مغلقا. فأضاف بخبث:

– يمكنك أن تحدثني عن نفسك.

قلت وقد بدأ قلبي يخفق انفعالا:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– إنني أدعى آدم.

وجه إليّ نظرات، شعرت أنها تثقب جلدي ثم قال ضاحكا:

– هل تعرف يا آدم أنني أدعى أنا الآخر آدم. لقد نسي الجميع إسمي مع الزمن حتى اعتقدت أنني نسيته أنا الآخر. ولكن هل تعرف يا آدم لماذا سمى الله آدم آدم؟

قلت مرتبكا:

– لا بد أن اسم آدم أعجب الله.

هز ملك الزمان رأسه:

– جواب غير منطقي. لا شك أن آدم يعني الإنسان الأول.

ثم نظر إلى إبليس:

– ما هو رأيك يا ملاكي الطيب؟

أجاب إبليس، متهربا:

– ربما كان من الأفضل أن نسأل عالما في اللغات القديمة.

قال ملك الزمان، متبجحا:

– كلا، كلا، سوف أسأل الله نفسه عندما التقيه الليلة في الجنة.

كان ذلك أكثر من أن أصمت عليه. قلت:

– كنت أعتقد أن الله مشغول جدا. أنت تعرف أن إدارة شؤون الكون ليست أمرا سهلا.

ارتسمت ابتسامة هازلة على طرف فم ملك الزمان:

– حقا، حقا، ومع ذلك فإنه يملك دائما ما يكفي من الوقت لاستقبالي.

قال إبليس مداهنا، وربما أيضا لقطع الطريق علي:

– إن الله يكن تقديرا خاصا لملك الزمان.

صمت ملك الزمان قليلا قبل أن يقول:

– أنت تعرف يا آدم أن اسمي لم يأت من العدم. فأنا ملك الزمان الذي انتظره الجميع، جيلا بعد آخر. وحتى أكون واضحا معك أقول إنه تناهى إلى سمعي أنك تريد العودة إلى الجنة. هذا من حقك بالطبع، ولكنك أخطأت عندما سلمت قيادك لمشعوذين، يدّعون معرفة الطريق إليها. كان ينبغي أن تأتي إلى يا آدم، أليس كذلك؟ ولكن دعنا من ذلك، قل لي، هل رأيت جنتنا الجديدة؟ أرجو أن تكون قد أعجبتك!

سبقني إبليس إلى القول:

– لم يكن هناك وقت أمام آدم ليرى الجنة الجديدة. سوف آخذه معي ليشهد كل شيء بنفسه.

قال ملك الزمان:

– حسنا، حسنا، سوف ترى يا آدم اعجوبتي الجديدة. لا أعتقد أن جنة السماء أفضل منها. وهكذا كما ترى فإننا مثلما خرجنا من الجنة ذات يوم نعود إليها ثانية.

قلت:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– كنت أعتقد أنه لن تكون ثمة جنة فوق الأرض.

بدا السرور على وجه صاحب الزمان فقال مقهقها:

– لا ينبغي أن تفقد الأمل يا آدم. الجنة موجودة وسوف تراها بأم عينيك. تستطيع أن تلمس أحجارها بيديك. لقد بناها لي ملاكي الطيب. إنه حقا مهندس من الطراز الأول. رفض حتى أن يأخذ فلسا واحدا مني. ملاك يستحق كل ثناء.

قال إبليس بتواضع:

– عفوا، يا سيدي ملك الزمان. لم أقم إلا بواجبي.

قلت:

– ربما ليس من الصحيح إبقاء الأمر سرا. سوف يسر الناس بالتأكيد أن يعودوا ثانية إلى الجنة.

قال ملك الزمان:

– طبعا، طبعا.

ولكن ليس قبل أن أقضي على المسيح الدجال وأتباعه الكثيرين. ومع ذلك فقد اقتربت الساعة. إننا نستعد منذ الآن لحفل الافتتاح الكبير.

قال إبليس متملقا:

– حفل لم تشهد له البشرية مثيلا. سوف يقود سيدنا ملك الزمان بنفسه شعبه إلى الجنة. من الرماد سوف ينبعث الشرر ومن الموت تولد الحياة ثانية.

قلت، منزعجا:

– أي رماد وأي موت؟

قال ملك الزمان وعيناه تتقدان مثل جمرتين:

– من خرائب الزمان تشيد منازل الأبدية.* ألا تعرف ذلك؟

ثم أضاف، كما لو أنه يقر حقيقة ثابتة:

– من رماده سوف أبعث العالم ثانية.

ران الصمت مرة أخرى على الجلسة. لم أجد ما أقوله. ماذا كان يمكن أن أقول؟ أما إبليس فقد أشعل سيجارة وراح يدخن. بدا الامتعاض على وجه ملك الزمان. إنتظرت أن يبادئني الكلام ولكنه لم يفعل. ظللت جالسا، أحدق فيه ثم وضعت رجلا فوق رجل، كما لو أن الأمر لا يهمني. وبدا لي أن إبليس يلعب هو الآخر. كان من الواضح أن ملك الزمان بدأ يشعر بالضجر. وأخيرا فتح فمه:

– كنت قد فكرت في أن أعينك مستشارا لي. ولكن ذلك يبدو لي الآن فائضا وبدون معنى. ما حاجة القائد الحقيقي إلى مستشار؟ إذا كان المستشار قادرا على التفكير بطريقة أفضل من القائد فلماذا يظل القائد قائدا؟ وإذا كان المستشار أدنى مقدرة فإنه يصير عبئا على القائد. أعرف قادة اتخذوا لهم، بحكم الموضة، مستشارين فأصبح شغلهم الشاغل توجيه المستشارين والتفكير بدلا عنهم. كلا، لا أريد

---

* جيمس جويس: يوليسيس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن أرتكب نفس الخطأ. وعلى أي حال فأنا ملك الزمان الذي يعرف كل شيء.

شعرت أن الحظ واتاني لأفلت من الفخ، فاقتنصت الفرصة، قائلا:

– هذ هو عين الصواب.

أعتقد أنه لمح ايماضة فرح في عيني. فقد واصل حديثه، غير آبه بمديحي له:

– ولكنني فكرت في مهمة أفضل لك.

قلت مضطربا:

– مهمة أفضل؟

إبتسم:

– لا تقلق يا آدم! لن أسند إليك مهمة تعجز عن تحقيقها.

قلت، متعمدا التواضع:

– أشعر أنني عاجز عن فعل أي شيء.

إعترض ملك الزمان:

– هذا ليس صحيحا. ليس التواضع خصلة حميدة دائما يا أدم.

كان إبليس يدخن وكأن الأمر لا يهمه. ما كان في إمكاني أن أخمن ما يمكن أن يطلبه الرجل مني. حدق في مبتسما ثم قال بطريقة مباغتة:

– أعتقد أن رجلا بمثل خبرتك سوف يكون أفضل مدير للبلدية في جنتي الجديدة. أليس كذلك يا آدم؟

شعرت بالأنشوطة تطبق على عنقي:

أنت تعرف يا ملك الزمان أنني لا أفقه شيئا في شؤون البلديات، فأنا شاعر قبل كل شيء.

قال ملك الزمان بحزم:

– وماذا في ذلك؟ جميع الشعراء يمارسون مهنا لا علاقة لها بالشعر. وعلى أي حال فان هذا يشجعني على أن أسند إليك مهمة أخرى.

تساءلت مقاطعا:

– مهمة أخرى؟

قال صاحب الزمان بهدوء:

كثيرون هم الذين امتدحوا شعرك أمامي. وقد أملت أن أراك بين الشعراء الذين يزورونني في قصري، ولكنك لم تأت أبدا.

قلت، محرجا:

– أنت تعرف يا ملك الزمان أنني لست المتنبي ولا أجيد المديح مثل بقية شعراء مدينة جبل قاف.

ضحك ملك الزمان:

– ليأخذهم الشيطان! هل تعتقد أنني أحترم هؤلاء الكذابين المنافقين؟ كلا، يا آدم. سوف أكون سعيدا لو أنك نظمت ملحمة طويلة عن وصولك معي إلى الجنة. أريد ملحمة، تتذكرها الأجيال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القادمة. هل أطلب الكثير يا آدم؟

وتدخل إبليس موضحا:

– سوف تبهرك مشاهد الاحتفال الكبير يا آدم.

قال ملك الزمان:

– لقد طلبت أن يتولى إخراج الاحتفال أحد ما من هوليوود فوصلنا عشرة مخرجين دفعة واحدة.

قال إبليس ممتعضا:

– هؤلاء الأميركيون! أول سؤال نطقوا به وهم لا يزالون في المطار: «كم تدفعون» لا شيء أهم من الدولار في نظرهم.

يبدو أن ملك الزمان كان قد شعر بالتعب أو ربما بالضجر. فقد رفع يده وأشار إلينا بكفه، قائلا بلهجة مسرحية:

– هيا، هيا انصرفوا. Ite missa est *

ثم نهض فنهضنا أنا وإبليس. مد يده وصافحنا مودعا رغم أنه كان مصابا بوسواس النظافة والخوف من الجراثيم، مما جعله يلجأ في أغلب الأحيان إلى ارتداء القفازات ووضع كمامة فوق فمه عند استقبال أحد ما. وإذا كان قد استغنى عن هذه الطقوس معنا، فربما لكي يظهر مدى ثقته بإبليس الذي كان من الواضح أنه يعتمد عليه في كل صغيرة وكبيرة. ما كدنا نصبح خارج القصر حتى سألني إبليس:

---

* انتهى القداس (لاتينية)

– ها، كيف وجدته يا آدم؟

– أعتقد أنه المسيح الدجال بعينه.

رد إبليس غاضبا:

– لا تكن قاسيا يا آدم. لقد كان طيبا معك على الأقل. ليس سيئا أن يحلم المرء. كلنا نحلم.

– ثمة فارق بين حلم وحلم.

طوال ساعات ظللت أتنزه مع إبليس داخل الجنة الجديدة. هناك التقيت روبوتات ذات رؤوس منقارية تتبادل القبل، جالسة على المصاطب في الحدائق والمتنزهات العامة أو جارة وراءها أطفالها من أيديهم في الشوارع. ثم صعدنا إلى مدرسة طائرة داخل صندوق زجاجي عائم فوق الغيوم. قال إبليس موضحا: "مثل هذه المدارس توسع خيال الأطفال." وفي ثكنة عسكرية شاهدت طوابير من الجنود الذين كانوا يرتدون ملابس السوبرمان ويحلقون في الجو، ومناطيد مجهزة بمدافع ليزر، وعتلات كهرو- مغناطيسية لإيقاف حركة الكرة الأرضية أو تسريعها وأكياسا مليئة بغيوم توزع فوق مدينة الجنة، حسب الحاجة إليها. وكانت ثمة مدافع ضوئية تطلق صور ملك الزمان نحو الكواكب والمجرات الأخرى. ومن أجل مقاومة تقلبات الطقس وهبوب العواصف والرياح بنيت قبة زجاجية هائلة فوق المدينة، تفتح أو تغلق، من قبل دائرة الرصد الجوي المسؤولة عن توفير أفضل مناخ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ممكن للمملكة. وكانت ثمة اعلانات أمام أبواب مكاتب السفريات عن رحلات سياحية إلى القمر والمريخ وإعلانات أخرى عن تأجير شقق في المحطات الفضائية. وفي الدائرة المركزية كانت ثمة مفاعلات، تولد الطاقة من العدم. وفي المستشفى العام كان الموتى يصفون فوق شريط متحرك يمر بغرفة زجاجية معتمة، فيخرجون واحدا بعد الآخر أحياء يتضاحكون. أما العجائز الذين كانوا يجرون أرجلهم بصعوبة أو يحملون على الأكتاف فكانوا يقصدون أحواض ينابيع الصحة التي كانوا يغطسون فيها عراة فيخرجون شبانا وشابات في ريعان الصبا، بحيث أنهم غالبا ما كانوا يهتاجون فيمارسون الحب داخل الحوض نفسه.

في نهاية نزهتنا داخل مدينة الجنة قال إبليس، ضاحكا:

– والآن يا آدم، ألا ترى أن ملك الزمان ليس بالسوء الذي تعتقده؟

قلت مغتاظا:

– أنظر يا إبليس، لقد اعتدت مع الزمن أن أفقد القدرة على الدهشة. وسيان عندي أن ينهض العالم من رماده أو أن يفطس إلى الأبد. ما يهمني هو أن أعود إلى شقتي وأن أنام.

قال إبليس مواسيا:

– لا تفقد الأمل يا صاحبي وإلا نبت لك ذنب أطول من ذنبي.

ثم أضاف ضاحكا:

– أعرف أنك قد اشتقت إلى شهرزاد. لا بد أنها قلقة الآن عليك.

ثم قادني إلى حيث كانت طائرة الهليكوبتر تنتظرني وودعني بحرارة، شادا على يدي:

– ضروري أن نكون أصدقاء يا آدم، فنحن أقدم كائنين فوق هذه الأرض. يهمني أن نسكر سوية ذات ليلة ونستعيد ذكرياتنا في الجنة القديمة.

حلقت الطائرة بنا فاخترقنا نفق الطلمات، عائدين إلى مدينة بغداد التي انفتحت أمامنا مثل زهرة هائلة وسط الصحراء.

في الأيام القليلة التي أمضيتها في المعتقل بحثت شهرزاد عني في كل مكان. إتصلت أولا بالجريدة التي أعمل فيها فقيل لها إنني خرجت عندما كان الانقلابيون يقصفون وزارة الدفاع وفكرت أنني ربما أكون قد قتلت. فقد كانت الجثث في كل مكان. ظلت تسأل عني في المستشفيات والمقابر، دون جدوى، ثم راحت تطرق الأبواب المغلقة للسجون والمواقف ومعسكرات الاعتقال وساديب التعذيب، سائلة عني، فكانوا يطردونها أو يضربونها وقد أوشكت أن تغتصب عندما تحدثت إليها خلسة إمرأة كانوا قد اتهموها بالسرقة، ذات مرة من وراء القضبان، طالبة منها انقاذها من عذابها اليومي، حيث كانت تغتصب كل ليلة عشر مرات على الأقل، ودائما طبقا للتسلسل الوظيفي لرجال الشرطة. فكرت شهرزاد أن المسؤولين الكبار ربما كانوا أكثر رأفة فقصدت مدير الشرطة وروت له ما قالته لها المرأة فضحك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واضعا يده على فخذها الذي راح يضغط عليه بأصابعه:

– وماذا في ذلك يا بنيتي؟ لقد خلق الله النساء لباسا للرجال.

ثم نهض وأغلق الباب، نازعا سرواله:

– ستكونين ضيفتي يا بنيتي هذه الليلة، ستكونين لي وحدي. لن يأكلك أحد غيري. أعدك بذلك.

وقرع جرس الهاتف. كان أحد ما يصدر أوامره إليه في الطرف الآخر من الخط. إرتدى سرواله مسرعا، منزعجا وشاتما:

– انتظريني هنا، سوف أعود ثانية، لأطلق سراح صديقتك السجينة. ثم خرج ولعابه يسيل من طرف فمه.

عندما يئست شهرزاد من عودتي إليها رجعت إلى الشقة وارتدت ثياب الحداد ثم انقطعت عن تناول الطعام. فإذا كان قد كتب عليها أن تفقد الرجل الوحيد الذي تثق به في العالم، فأي معنى يبقى للحياة نفسها؟ كانت قد قررت أن تموت هكذا وحيدة في شقة مغلقة. ولكنني عدت إليها. لم تصدق أذنيها عندما سمعت المفتاح يدور في القفل. وإذ رأتني أقف أمامها انهارت فوق صدري، باكية:

– لا تتركني بعد الآن، لا أريد أن أظل وحيدة.

ربت بكفي على ظهرها، وقد استبد بي الحنان:

– لا تبكي، كل شيء سيكون على ما يرام.

كانت تلك أول ليلة سعيدة في حياة شهرزاد.

في الصباح كانت الحرب قد اندلعت. فقد استيقظت على دوي القنابل والصواريخ التي كانت تهز المدينة. وفزت شهرزاد من نومها أيضا عندما رأتني أنسل من السرير وأطل من النافذة على المدينة المحترقة، فلحقت بي، ووقفت لصقي:

– ماذا يحدث يا آدم؟

قلت بلا مبالاة:

– لاشيء، إنها الحرب مرة أخرى.

اتكأت شهرزاد على ذراعي وقالت بحزن:

– لا أريد أن أفقدك يا آدم. في الحرب يموت الناس. لا أريدك أن تموت.

قلت محتضنا اياها:

– لن نموت. الآخرون هم الذين يموتون دائما في الحروب.

ورن جرس الباب، فاتجهت شهرزاد لتفتحه. قلت:

– من يمكن أن يزورنا في مثل هذا الوقت؟

كان الأمير الصغير يقف لاهثا أمام الباب:

كنت في طريقي إليك عندما بدأت القنابل تسقط فوق المدينة. يبدو أن الناس أصيبوا بالجنون. إنهم يتركون بيوتهم ويهربون إلى القرى البعيدة. طوابير لا نهاية لها من السيارت في الشوارع، صراخ وعويل في كل مكان. لا أعتقد أن يوم القيامة سوف يكون مختلفا كثيرا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قلت:

– حسنا، هديء روعك. اجلس أولا.

وجلس الأمير الصغير على كرسي في الصالة:

– بعد ذهابك أمس جاؤوا وأطلقوا سراحي. كانوا مؤدبين جدا حتى أنهم أوصلوني إلى بيتي. ماذا حدث يا آدم؟

ضحكت:

– لا شيء. كل ما في الأمر هو أن ملك الزمان طلبني ليتعرف علي. أنت تعرف كم هو عاطفي!

قال الأمير الصغير، مندهشا:

– لا بد أنك تهزل يا آدم.

قلت، متهربا:

– المهم أنهم أطلقوا سراحنا. سوف أروي لك كل شيء فيما بعد. هل جئت بسيارتك؟ ربما كان من الأفضل أن نهرب نحن أيضا من هذه المدينة.

رد الأمير الصغير يائسا:

– لقد تركت سيارتي وسط الشارع. يبدو أنهم قصفوا جميع الجسور والطرق. لم يعد أحد يفكر في أحد. كثيرون سحقوا تحت الأقدام أو سقطوا تحت حوافر الحمير والخيول والجمال والأبقار الشاردة واحترقت سيارات كثيرة.

عادت شهرزاد بالفطور والشاي من المطبخ:

– الأكل أولا ومن ثم الحديث في السياسة.

قلت ضاحكا:

– إذا كانت الحرب سياسة، فليلعنها الله.

دوى انفجار قريب، هز البناية. انكمشت شهرزاد على نفسها، قائلة:

– سوف نجد طريقة ما للنجاة. أليس كذلك؟

قرع جرس الباب ثانية. كان فرجيل يقف في الباب. قلت:

– لقد جئت في الوقت المناسب يا فرجيل. هيا افطر معنا.

هز رأسه، وهو يلقي بنفسه فوق الكرسي:

– لا يمكنني أن أترككم هنا. من الخطر البقاء في هذه الشقة. لا بد من مغادرة المدينة.

قال الأمير الصغير، يائسا:

– أنت تخرف يا رجل. الطرق مقطوعة والقنابل تنفجر في كل مكان. هل تريدنا أن نطير؟

نهض فرجيل فجأة. كان من الواضح أن فكرة ما قد خطرت في ذهنه:

– لا بد من تدبير خروجكم من هنا. سوف أعود بعد قليل.

خرج وصفق الباب وراءه. ما كان في إمكاني أن أخمن الأمل الذي راوده، ولكنني كنت أعرف أنه يحيط أفعاله دائما بالغموض، كما لو أنه يخاف عليها من الضوء. سألت شهرزاد:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– إلى أين ذهب؟ أرجو ألا يقتل في الطريق.

قلت:

– إنه ثعلب حقيقي، يعرف كيف يفلت من الخطر.

عاد فرجيل بعد قليل:

– هيا استعدوا سوف نغادر سدوم.

سألت مستغربا:

– وكيف دبرت هروبنا أيها الساحر؟

رد فرجيل:

– هناك دائما حل واحد ممكن على الأقل.

سألت ثانية:

– وما هو هذا الحل؟

قال فرجيل بهدوء:

– اتصلت بالهاتف بصديقي السندباد وطلبت منه المجيء فوق بساطه السحري. شكرا لله إنني أمسكت به قبل مغادرته البيت. أعطيته عنوان الشقة ووصفت له موقعها. لا أعتقد أنه سوف يخطئها. قال إنه سوف يحط فوق سطح البناية بعد قليل. هيا لا ينبغي أن نتركه ينتظرنا فوق السطح وسط القنابل والصواريخ المتهاوية.

ارتديت ملابسي بسرعة بينما انهمكت شهرزاد في حشو حقيبة جلدية صغيرة بالبيجامات والملابس الداخلية وكيس من الكعك قبل أن ترتدي هي الأخرى ملابسها. ثم أغلقت الشبابيك وأسدلت

الستائر عليها ثم تأكدت من إطفاء موقد الغاز، وقفلت باب الشقة مرتين بالمفتاح، صاعدة السلالم المؤدية إلى السطح ورائي. في السطح كان السندباد البحري، بسرواله الحريري الأصفر وقميصه الأحمر وعمامته الخضراء ينتظرنا أمام بساطه، متكئا على الجدار وفي فمه سيجارة. ولكنه ما كاد يرى شهرزاد حتى انحنى وقبل يدها:

– لم يقل لي فرجيل إنك هنا يا سيدتي. إنني أدين لك بكل شيء. بدونك ما كان يمكن لي أن أوجد.

قالت شهرزاد: آه، لا تقل ذلك يا سندباد. فقد وجدت أنا الأخرى متعة كبرى في تأليف قصتك.

قال فرجيل، مخاطبا السندباد:

– أرجو ألا تكون قد انتظرت طويلا.

رد السندباد، مبتسما:

– آه، كلا، بضع دقائق فقط.

صافحنا السندباد الذي قال، منكتا:

– هناك من يحاول التشكيك في هذا الزمان بقيمة بساطي السحري. ولكنه، كما ترون عملي تماما.

قال الأمير الصغير:

– إنه لا يحتاج على الأقل إلى الوقود الذي يكلف الكثير ويلوث البيئة. ينبغي أن نشكر شهرزاد على هذا الاختراع الذي ابتكره خيالها لنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لاحظ السندباد بعض الخوف على وجه شهرزاد فقال مطمئنا:

– لا ينبغي أن تخافي. إنه أكثر أمانا من أي طائرة، اذ ليس هناك محرك يتوقف فجأة أو خزان وقود ينفجر. أنت تعرفين ذلك أفضل مني.

ردت شهرزاد خجلة:

– آه، لست خائفة. كل ما في الأمر هو أنني لم أجربه من قبل. رواية القصص هي غير رواية الحياة.

جلس السندباد في المقدمة، على طرف البساط الذي ارتفع قليلا فوق الأرض فدلى رجليه في الهواء والى جنبه فرجيل بينما جلست أنا وشهرزاد والأمير الصغير في الوسط، ممسكين بأكتاف بعضنا. قال السندباد ضاحكا:

– يبدو أنني أصلح أن أكون سائق تاكسي. العنوان رجاء!

قال الأمير الصغير:

– أي عنوان يا رجل؟ خذنا إلى أي مكان تريد، بعيدا عن هذه الحرب اللعينة.

رد السندباد:

– ما دمتم قد تركتم الأمر لي فسوف آخذكم إلى أفضل فندق أعرفه.

ارتفع البساط السحري، محلقا فوق المدينة المحترقة، بينما كانت الطائرات تقبل سربا بعد آخر وتنقض على أهدافها والصواريخ تنطلق

من وراء البحار. كانت الإنفجارات تدوي في كل مكان والشوارع والبيوت تلتهمها النيران الزاحفة. وكان عويل الضحايا يسمع في الشوارع. قلت وقد غمرني الحزن:

– يا إلهي، لم يعد في المدينة سوى الخرائب.

كان البساط السحري قد أصبح خارج سماء الحرب. في الأسفل كانت المروج، تمتد خضراء متموجة، منتهية بسلسلة من الجبال الصخرية. بعد ساعة بدأ البساط السحري يهبط قليلا، قليلا، ثم حط أمام فوهة مغارة. قال السندباد:

– أرجو أن تكونوا قد استمتعتم برحلة طيبة.

ردت شهرزاد بتلقائية:

– حمدا لله على السلامة.

لف السندباد بساطه ووضعه على ذراعه، قائلا:

– أفضل مكان للإختباء، حتى تنقضي هذه الحرب اللعينة.

احتج الأمير الصغير:

– ولكنه كهف. لا أعتقد أنك تريدنا أن نسجن أنفسنا داخل كهف.

قال فرجيل، غير آبه باعتراض الأمير الصغير:

– هذا هو كهف أهل الكهف. إن غرفه جيدة وأسرته نظيفة. يمكنكم أن تناموا فيه حتى نهاية الحرب، بدل إحراق أعصابكم في متابعة أخبارها. سوف نمر عليكم أنا والسندباد عندما تنتهي الحرب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ونوقظكم.

قلت مستغربا:

– ماذا يا فرجيل؟ ألا تريد البقاء معنا؟

اعتذر فرجيل:

– الأرواح لا تنام يا آدم. هناك أمور كثيرة تنتظرني في هذا العالم الشقي. المهم أننا ضمنا سلامتكم. سوف تجدونني بعد الحرب ثانية.

سار السندباد أمامنا داخل المغارة، حيث رأينا أهل الكهف ومعهم كلبهم يشخرون في نومهم، فهمس:

– أرجو ألا تحدثوا ضجيجا، قد يقلق نومهم.

ثم دلنا إلى غرفتين في الطرف الآخر من المغارة، احتل إحداهما الأمير الصغير الذي قال مداعبا:

– أفضل فندق مجاني، يمكن أن يحصل عليه المرء هذه الأيام.

قلت مخاطبا السندباد:

– حسنا، إننا نعتمد عليك في ايقاظنا. لا نريد أن ننام ألف سنة مثل شيوخك النائمين في الصالة.

رد السندباد ضاحكا:

– بالتأكيد، بالتأكيد. لا أعتقد أن الحرب سوف تستمر آلف سنة.

ثم أغلق الباب وراءه وخرج.

ما كدت أضع رأسي على الوسادة حتى غرقت في نوم عميق

وطويل، يختلف عن أي نوم آخر، عرفته من قبل. كان نوما مليئا بالصحو، مزيجا من الذكريات والهواجس والأحلام. قارات تنبثق في الذاكرة، من وراء ستارة دخان في الأفق. كنت في كل مكان، حيث وقائع تبرق خاطفة ومضيئة، ثم تنتهي لتبدأ وقائع أخرى. حياة البشرية كلها مرت أمام عيني، مثل شريط لا نهاية له. القبائل الأولى التي استوطنت الغابات، مزاحمة القردة على الثمار، معارك النياندرتال مع الدببة التي كانت تهاجم الكهوف في الليالي، والديناصور الذي يثير الرعب في قلوب المحاربين. الرحلات الشاقة في الصقيع، في الصحارى، في الجبال وعبر الأنهار. السيول تجرف أمامها كل شيء والبراكين تنفجر فجأة فتسيل حمراء، ملتهبة كنهر نابع من الجحيم، غيوم الطيور المهاجرة تغطي السماء. الشتاء ببروقه ورعوده وأمطاره. الربيع بخضرته وورووده في الفيافي، الصيف بشمسه اللاهبة والخريف بأوراقه الذابلة، الأنهار مليئة بالأسماك، تهدر أبدا، النجوم القريبة البارقة، الليل والنهار، الشمس والقمر، الذئاب العاوية والصقور المحلقة، النيازك تضيء الظلام ورقصات الفتيات حول الفريسة فوق النار، الحروب الأولى، القتلى والجرحى، الجنس الحر، الأسرى والعبيد، السحرة والكهان، البيوت والمعابد،، بابل وطروادة وطيبة، الجيوش الزاحفة، معارك الدم، الحضارات تظهر وتزول، الأنبياء يلقون مواعظهم في الأسواق، حرب تعقب حربا، سيافون يقطعون الرؤوس وملوك يقتلون ملوكا. خونة وعشاق. لصوص وشرفاء، مؤمنون وملحدون،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شعراء وكهنة، أباء وأبناء، ولاءات وخيانات، مدن تنبت كالعشب، عمارات من الخرسانة والزجاج، نساء يحبلن دائما، الألم دائما، وجنود بخوذهم وبساطيلهم وبنادقهم ينحدرون من فروج أمهاتهم في صفوف طويلة، ذاهبين إلى الحرب.

كانت الصور تتقطع في رأسي، متداخلة حتى لكأن كل شيء يحدث دفعة واحدة. وكانت ثمة بغداد دائما. الأصدقاء والأعداء، أولئك الذين يقفزون فجأة من الذاكرة ويعرضون أشرطتهم السينمائية الغريبة. يهوذا يصعد الجلجلة باكيا، وعلى رأسه تاج الشوك، حيث ألف مسيح يجرونه إلى الصلب. قبل أن يرتقي صليبه تقدمت منه وقبلته، قائلا:

– كن شجاعا يا بني.

وهو على الصليب مر من أمامه موكب الأقزام، حاملين نعش توميشكا إلى العالم الآخر الذي كان المرء يهبط إليه بسلم مربوط إلى حافة بئر. تركوه هناك وانصرفوا. ثم خرج يوسف من البئر فرأى الذئب ينتظره. نزع قميصه ورماه عليه فتحول إلى حمامة، ثم رأته زليخة، جالسا في السوق على دكة يقشر برتقالة فأومأت له بإصبعها وهي في عربتها، فتبعها حتى بلغت بيتها وجرته من يده وأدخلته الحمام، متعرية من ثيابها وقالت له: هيت لك.

ذكريات حروب. أيام جوع. جراد يزحف من أعماق الصحراء وأوبئة تجتاح المدن. طاعون لندن، خيول هولاكو تقتحم بوابات

بغداد، حصان طروادة المصنوع من البلاستيك في هوليوود، دانتي يرى شبح فرجيل، فيتبعه إلى الجحيم، خلفاء أمويون يتجولون بين الأشجار وخلفاء عباسيون في ملهى ليلي، وراقصات شرقيات يوزعن الزهور على الجنود، صليبيون يدفنون موتاهم عند أسوار عكا، آبار تتدفق نفطا في صحراء وأعراب يقيمون موائد للأشباح، عربات موتى وطبول تقرع، أجراس وعويل قديم، الليالي تمر والنهارات تتعاقب، النوم، النوم الطويل.

كم ليلة مرت علينا؟ كم نهارا؟ لم نسأل قط عن ذلك. جاء السندباد وأيقظنا، قائلا:

– هيا انهضوا أيها الكسالى. لقد انتهت الحرب.

عرفنا أن وقتا طويلا قد مر علينا. فقد نمت لحيتانا، أنا والأمير الصغير، وتهدلتا فوق صدرينا حتى لكأننا قديسان عائدان من الأزمنة الغابرة، وهو ما جعل شهرزاد تغرق في الضحك:

– إنكما تشبهان هارون الرشيد.

تسللنا، واحدا بعد الآخر، ملقين نظرة أخيرة على الشيوخ الذين كانوا يغطون في نومهم لصق بعضهم، وقد تدلت لحاهم حتى السرة. قالت شهرزاد عندما أصبحنا خارج الكهف:

– ربما لن يستيقظوا أبدا.

رد السندباد مطمئنا:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– عندهم ساعة منبهة. سوف يوقظهم صوت الجرس ذات يوم.

قالت شهرزاد بأسى:

– لا بد أنهم هاربون مثلنا. يا لهم من شيوخ مساكين.

سألت السندباد:

– أين فرجيل؟ ما كان له أن يتركنا وحدنا الآن.

قال السندباد:

– لا أعرف ما حل به. لم أره منذ لقائنا الأخير هنا.

قلت:

– أرجو ألا يكون قد نسينا، فهو دليلنا الوحيد في هذا الجحيم.

ضحك السندباد:

– ربما فضل أن ينتظركم في جبل قاف. لا بد أنه ينتظركم هناك.

حلق البساط السحري عاليا، مندفعا نحو المدينة الميتة. قال السندباد:

–فكرت أن أترككم نياما لولا أنني كنت قد وعدت فرجيل بإيقاظكم بعد نهاية الحرب. لماذا ينبغي على المرء أن يفتح عينيه على الموت؟

قال الأمير الصغير:

– لا شك أن خرابا كبيرا حل بالعالم.

ضحك السندباد:

– سوف ترى الخراب بنفسك.

وبدت الخرائب تظهر للعيان شيئا، فشيئا. تلال من الحجارة والأنقاض تمتد على مدى البصر وأشباح تتحرك هنا وهناك. مقبرة لا نهاية لها من الكتل الحجرية المنهارة والسيارات المحترقة والنيران التي كانت لا تزال ملتهبة في كل حي وشارع. الجثث مرمية في الطرقات، تنهشها الكلاب الضالة والدخان يغطي السماء.

قلت بحزن:

– لقد انتهت مدينة جبل قاف، وأكلتها النيران.

هبط البساط السحري بين الأنقاض. قال السندباد:

– سوف أترككم هنا. لم يعد ثمة ما يشدني إلى هذه المدينة. سوف أرحل بعيدا.

ثم ودعنا واختفى في السماء التي كانت تبقعها الغيوم، جالسا فوق بساطه وملوحا بيده:

– وداعا.

– وداعا.

ما كاد السندباد يتركنا حتى انتابتنا الحيرة. كانت الخرائب في كل مكان، وقد اختفت حتى الشوارع التي كان يمكن لنا أن نسلكها. أين أنت يا فرجيل لتدلنا على الطريق وسط هذه المتاهة؟ ظللنا هائمين على وجوهنا بين الأنقاض التي كان أصحابها يجلسون فوقها، كما لو أنهم يخافون عليها من السرقة. كانوا ناسا صامتين، يطرقون برؤوسهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نحو الأرض، متجنبين النظر في عيون بعضهم. ومن بعيد كان يمكن للمرء أن يسمع النداءات التي توجهها مكبرات الصوت إلى السكان الأخيرين، مبشرة اياهم بميلاد جبل قاف الجديدة، معلنة عن مهرجان التاريخ الكبير الذي سيقام على ساحل البحر في الساعة الثانية بعد الظهر للعودة إلى الجنة.

فكرت: هذا هو اليوم الموعود إذا. بذلنا جهودا مضنية في العثور على الطريق المؤدية إلى الساحل بين الأنقاض. سألنا بعض الذين كانوا يجلسون فوق الخرائب، إلا أن النظرات الشزرة الصامتة التي تلقيناها جعلتنا نكف عن السؤال. وأخيرا رأينا موكبا مغنيا للنصر يخرج من بين الأنقاض والحجارة فتبعناه بصمت ووجل.

كان الساحل يعج بالناس الذين جاؤوا من كل مكان، ملبين نداء ملك الزمان الذي كان سيقودهم إلى الجنة في نهاية المهرجان الذي حضره ضيوف أجانب من بلدان قريبة وبعيدة، جلسوا على كراس عالية، صفت في منصة الشرف، يتوسطهم إبليس الذي كان يضع فوق عينيه نظارة سوداء ويدخن. في وسط ذلك الضجيج المدوي كان يمكن للمرء أن يسمع الأصوات المبحوحة لذوي القبعات والبذلات والأحذية البيض، وهم يغنون ويرقصون.

ثم وقف عريف الحفل الذي كانوا قد جلبوه من التلفزيون ليعلن باسم ملك الزمان افتتاح برنامج الاحتفال الذي قال عنه إنه سيبقى عالقا بذاكرة البشرية إلى الأبد. وبشر أهل جبل قاف أن كل كوخ

هدمته الحرب سوف يستبدل بقصر منيف وأن الموتى سوف ينفضون عنهم جراحهم وينهضون ثانية، عائدين إلى بيوتهم وذويهم وهم يتفجرون صحة وعافية أكثر من ذي قبل.

فجأة ساد الصمت الساحل الرملي المفتوح على بحر يغطيه الضباب ونهض الجميع على أقدامهم عندما أخذ رجل يقف وراء ستارة شفافة، ينفخ في بوقه ثم انفتح باب جانبي في جدار الساحة، خرج منه ملك الزمان الذي كان يرتدي ملابس الفرسان ممتطيا حصانا أبيض يتبعه تسعة وتسعون فارسا فوق خيول سود كالليل. سار الموكب على طول الساحل الذي ضج بالتصفيق، بينما كان ملك الزمان يرفع يده، محييا الجمهور على ايقاع الموسيقى العسكرية التي كانت تجعل حصانه يخب في سيره. ووراء هذا الموكب المهيب سار الوزراء والدبلوماسيون والشعراء والمهرجون، يتبعهم رياضيون رفعوا لافتات رسمت عليها بورتريتات بحجوم هائلة لملك الزمان الذي كان يبتسم دائما.

بعد هذا العرض الصاخب الذي استمر ساعة وبعض الساعة نفخ في البوق ثانية فانفتح باب آخر، خرجت منه عربة ذهبية مكشوفة، تجرها عشرة أسود ملجومة، يقودها ملك الزمان بالسوط. هذا الظهور الدرامي لملك الزمان جعل الجموع المنهكة القادمة من كل مكان تندفع إلى الأمام صارخة، ولكن الجنود الذين كانوا يمسكون في أيديهم بنادق بحراب أوقفوا زحفهم، مطلقين النار في الهواء. ثم ساد الصمت ثانية بانتظار ملك الزمان. ولما طال الانتظار انفجرت الجموع مرة أخرى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في صراخ هستيري ثم راحت تغني نشيد جبل قاف الوطني، وقوفا على الأقدام. وأخيرا ترجل ملك الزمان من عربته ورفع يديه في مواجهة البحر، محدقا في الأفق البعيد الغارق في الضباب. ثم استدار ليواجه الجموع البشرية التي ظلت تغني بلا توقف.

لم يفلح ملك الزمان في أن يفتح فمه إلا بعد أن تعبت الحشود من الهتاف، حيث ألقى خطبة قصيرة، قال فيها انه انتظر هذا اليوم طويلا وربما انتظرته معه البشرية أيضا منذ هبوط آدم فوق الأرض، معلنا العودة إلى الفردوس الذي سوف يقودهم بنفسه إليه. ثم اختتم خطبته بمقولة الشيطان الأبدية: "أعرف أن الخراب في كل مكان، ولكن اسمحوا لي أن أقول لكم إنه خراب جميل". أغمض عينيه وراح يرتل بصوت عميق: "أنا ملك الزمان أعلن نهاية الزمان، لأبدأ الزمان من جديد." وعندذاك عزفت الموسيقى العسكرية فسار ملك الزمان على البساط الأحمر الذي كان يمتد حتى الجرف الرملي الذي تضربه موجات البحر. هناك وقف لحظة قبل أن يشير بيده إلى الأفق البعيد، مناديا "ألا أيتها الجنة المنتظرة، ألا انجلي ليراك أبنائي السعداء!" هناك، هناك وفي لحظة لا تنسى انقشع الضباب فجأة عن البحر المزبد فبدت في البعيد، وسط الأمواج مدينة هائلة، تبرق تحت أشعة الشمس، بألف برج وبرج، حيث كان يمكن للمرء أن يرى بالعين المجردة عمارات هائلة، مكسوة بالذهب والياقوت وشوارع وحدائق على مد البصر. وإذ رأى ملك الزمان ذلك كله تقدم خطوات أخرى

باتجاه البحر حتى غمر الماء ركبتيه، ثم رفع سوطه الذي كان يقود به الأسود وضرب به البحر يمينا وشمالا، مناديا: "أيها البحر، أيها البحر العظيم، إنني آمرك أن تفتح لي الطريق إلى مملكتي!" كانت الأصوات قد خمدت فلم يعد ثمة سوى صمت عميق يخيم على الوجوه فيما جمدت العيون المحدقة في ملك الزمان. لم يطل الانتظار كثيرا. فقد انفلق البحر فجأة وانفتح على شارع مبلط باثني عشر خطا، يمتد بعيدا، بعيدا، في قلب الأمواج المتكسرة على طرفيه، حتى المدينة البارقة تحت الشمس، مرتفعة فوق جزيرة لم يكن أحد قد رآها من قبل. وإذ رأت الجموع ذلك انفجرت مرة أخرى، مطلقة صرخات هستيرية، محاولة الاندفاع إلى الأمام، دافعة أمامها الجنود الذين ظلوا ينتظرون اشارة من ملك الزمان الذي استدار ليواجه المشهد. ظل ملك الزمان صامتا برهة من الوقت حتى خيم الصمت ثانية. عند ذاك أخرج من عبه مزمارا وراح يعزف به ألحانا، جعلت الجميع يتقاطرون من كل مكان في المدينة الميتة ويسيرون مسحورين في طوابير طويلة نحو شارع البحر المفتوح، قاصدين جزيرة الأفق الذهبية.

من مكاني الذي أجلس فيه رأيت ما بدا لي أشبه بحلم. أخذت الوجوه تغير ملامحها القديمة، متخذة شكلا جديدا واحدا هو شكل وجه ملك الزمان، كما لو أنها نسخ مكررة منه. مواكب بعد مواكب تنحدر إلى الشارع، مارة بعازف المزمار وتغيب، وقد فقدت كل شعور

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بما يدور حولها. كان اللحن الذي يعزفه ملك الزمان قد امتلك أرواحنا نحن أيضا، ممتزجا بنداء سحري صادر من الجزيرة التي كانت أمامنا، وبدا أن ثمة قوة تقود خطاي أنا الآخر نحو البحر، ممسكا بيد شهرزاد التي أسندت رأسها إلى كتفي وإلى جانبي الأمير الصغير الذي فقد القدرة على الكلام. فجأة اندفع فرجيل من وراء شجرة وفي يده كيس قطن، أغلق بنتف منه آذاننا. لم نحاول المقاومة، فقد بدا كما لو أننا فقدنا القدرة على فعل أي شيء. ولكن ما كاد صوت المزمار ينقطع عنا حتى استعدنا أنفسنا ثانية. يا إلهي، ما الذي يحدث هنا؟ دفعنا فرجيل أمامه، مبتعدا عن الساحل، وصاعدا بنا إلى تلة بعيدة، كانت تشرف على المنظر كله. هناك جلسنا ندخن ونحدق في المواكب البشرية الذاهبة إلى الجنة. ظل ملك الزمان يعزف على مزماره حتى انحدر آخر موكب إلى البحر، فأعاد مزماره إلى عبه وتبعهم هو الآخر، فوق عربته الذهبية، ملهبا ظهور أسوده بالسوط. حينذاك فقط نزعنا القطن من آذاننا، فقال فرجيل: "شكرا لله انني أدركتكم في اللحظة الأخيرة." رددت عليه: "وماذا كسبنا؟ لقد ذهب الجميع إلى الجنة وبقينا هنا في مدينة تأكلها النيران". قال فرجيل: "أهذا هو كل ما تعلمته حتى الآن؟ انتظر قليلا وسوف ترى كل شيء!" وبالفعل ما كاد فرجيل ينهي جملته حتى رأينا البحر ينطبق على المواكب الزاحفة وجزيرة الأفق تنفجر مثل فقاعة كبرى وتغوص إلى الأعماق فلا يظل منها أثر.

كانت الصدمة قد جعلتنا نجمد في أماكننا، غير قادرين حتى على الحزن. ولكن ذلك لم يطل كثيرا، فقد رأينا، نحن والبشر الأحياء الذين تركهم ملك الزمان وراءه، ما جعل الدم يجمد في عروقنا، فقد انبثقت من البحر نافورة هائلة، راحت تطلق ما في جوفها بدون انقطاع فوق المدينة الميتة، مثل غيمة سوداء حجبت ضوء الشمس عنا.

في البدء خرجت الجرذان والفئران التي امتلأ بها الساحل، مثيرة الرعب بين الناس الذين عقدت الدهشة لسانهم، ثم تسللت، مالئة خرائب جبل قاف ومزاحمة البشر على سكناهم بين الحفر، وفي أعقاب الجرذان اندفعت كتل النمال والصراصر والذباب والبعوض التي غطت الأرض والسماء معا، ثم تدفقت ملايين الخفافيش التي كانت تلتصق بالأوجه فتمتص دماءها. كانت الحشرات والحيوانات تندفع موجة بعد أخرى – العناكب والضفادع والعقارب والأفاعي والدود ونبات وردان والجنادب والأخطبوطات وآكلات النمل والاسقنفورات وامهات أربع وأربعين والبراغيث والبراغش والسامات البرص والبوم ثم التماسيح والذئاب وبنات آوى والضباع والخراتيت والكلاب والحمير واليرابيع والقردة والخنازير والجداجد والظربان. موجة تعقب موجة من كائنات بأسماء وأخرى لا أسم لها، موجة بعد موجة وعويل طويل.

لا أعرف كيف نجوت، فقد اجتاحت الأشباح الخارجة من البحر المدينة الميتة كلها. ربما لم أنج قط، إنني إذ أحاول الآن أن أتذكر كيف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أفلت من الموت الذي زحف إلى جبل قاف وابتلعها إلى الأبد فان ذاكرتي تخونني وأشعر بصداع مؤلم يفجر رأسي. كل ما أذكره هو أنني فقدت شهرزاد التي ربما أكلتها الجرذان أو نهشتها النمال حتى قبل أن نغادر الساحل. أما صديقي الأمير الصغير فقد ظل بعض الوقت معي ثم اختفى أثره هو الآخر. ربما أكله الذئب أو سقط في واحدة من الآبار الكثيرة التي ظهرت في جبل قاف. ولكنني لم أعثر على ثيابه الملطخة بالدم، مما جعلني آمل في أنه لا يزال حيا وأنني قد التقيه ذات يوم في مكان ما.

عندما هربنا من الموت الذي اجتاح المدينة ظل الأمير الصغير يحدثني عن مركبته الفضائية التي ستأخذنا إلى القمر أو إلى أي كوكب آخر، يمكن أن نعيش فيه آمنين. لكنني ما كنت أريد أن أهرب تاركا شهرزاد ورائي. بحثنا عنها طويلا قبل أن نفقد الأمل في العثور عليها. عندما بلغنا المركبة الفضائية في آخر الأمر وجدنا أن الجرذان قد أكلت صواريخها وأبوابها، بينما احتلت مقاعدها قردة طاردتنا حالما اقتربنا منها. أذكر أننا ظللنا هائمين على وجهينا في مدينة الأشباح، ثم ضاع مني الأمير الصغير أيضا وبقيت وحيدا.

إنني إذ أفكر الآن في أحداث ووقائع حياتي الماضية أقول لنفسي: لا بد أن أحدا ما قد أخرجك من الجحيم، وإلا لمت مثل الآخرين أيضا. ولكن من كان يمكن أن يتذكرني في مثل ذلك اليوم؟ أرجو ألا يكون إبليس هو الذي أنقذني ثانية، بدعوى تلك الصداقة المريبة التي

جمعت بيننا ذات يوم في الجنة. آه، أذكر أنني مشيت طويلا. أذكر غيوما وأمطارا. أذكر حدودا اجتزتها، وأنهارا عبرتها، وبلدانا اخترقتها.

ماذا يهم ذلك الآن؟ لقد انتهى كل شيء وعلي أن أبدأ من جديد مثل كل المرات السابقة. ثمة ألم يرج أعماقي. كلما أحببت أحدا فقدته. كلما بدأت شيئا انتهى.

ها أنذا أجلس مرة أخرى في غرفة في مدينة بعيدة وأستعيد ذكريات جبل قاف التي هي ذكريات حياتي. أجلس وأدخن سيجارة بعد أخرى، في غرفة مختنقة بالدخان، مفكرا في شهرزاد والأمير الصغير اللذين ربما افترستهما الذئاب. فاقدا الأمل أسمع الجرس يرن. أذهب وأفتح الباب، فيفاجئني غودو، واقفا يبتسم، حاملا على كتفه حقيبته الجلدية الصغيرة. قبل أن أفتح فمي بالكلام يدخل ويعانقني بحرارة مثل أخ ضائع عثر عليه أخيرا. وإذ يرى الدموع في عيني يضع كفه على رأسي مواسيا ومداعبا ويقول ضاحكا:

– لا تبك يا آدم، كل شيء سيكون على ما يرام.

أفتح عيني. لا أحد في غرفتي التي تفوح برائحة الأسفنيك المدوخة. ما من طبيب او ممرضة. يبدو انهم تركوني لأموت وحيدا، وانصرفوا ليشربوا قهوة الظهيرة. عبر النافذة المفتوحة أسمع الأشجار تهزها الريح. لا لست ميتا. لقد نجوت هذه المرة أيضا. أرفع يدي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأمس وجهي وأقول لنفسي: ها انت ذا تعود الى الحياة مثل كل المرات السابقة. أنهض وأحلق ذقني مغنيا، كما أفعل دائما. أعطر وجهي وأرتدي بذلتي ثم أتسلل عبر النافذة الى الخارج، هاربا من الموت الى الحياة لأبحث عن شهرزاد الضائعة وصديقي الغريب الذي أعرف أنه سوف يقرع نافذة غرفتي ذات ليلة، إذ الثلج يهمي، ويدخل عائدا من النجوم.

برلين - ١٩٩٢ / ١٩٩٣

صدر حديثاً عن منشورات الجمل

علي الوردي: هكذا قتلوا قرّة العين

الحلاّج: الديوان، يليه كتاب الطواسين

النفّري: كتاب المواقف والمخاطبات

واسيني الأعرج: سيدة المقام رواية

سركون بولص: حامل الفانوس في ليل الذئاب شعر

حسين الموزاني: خريف المدن قصص

عبدالرحمن طهمازي: لكل واحد نشأة فحسب شعر

حاتم الصكر: رفائيل بطي وريادة النقد الشعري في العراق

سيد قطب: مهمة الشاعر في الحياة

مكتبة بغداد

منشورات الجمل ١٩٩٦

https://telegram.me/maktabatbaghdad